مصطفى محمود

السؤال الحائر

الطبعة الرابعة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج٠م٠ع٠

وسألت نفسى

سألت نفسى عن أسعد لحظة عشتها..؟؟

ومر بخاطرى شريط طويل من المشاهد.. لحظة رأيت أول قصة تنشر لى، ولحظة تخرجت من كلية الطب، ولحظة حصلت على جائزة الدولة فى الأدب.. ونشوة الحب الأول والسفر الأول.. والخروج إلى العالم الكبير متجولا بين ربوع غابات إفريقيا العذراء، وطائرًا إلى ألمانيا وإيطاليا والنمسا وسويسرا وإنجلترا وفرنسا وأمريكا.. ولحظة قبضت أول ألف جنيه.. ولحظة وضعت أول لبنة فى المركز الإسلامى بالدقى.. استعرضت كل هذه المشاهد وقلت فى سرى.. لا.. ليست هذه..

بل هى لحظة أخرى ذات مساء من عشرين عاما اختلط فيها الفرح بالدمع بالشكر بالبهجة بالحبور حينما سجدت لله فشعرت أن كل شىء فى بدنى يسجد.. قلبى يسجد.. عظامى تسجد.. أحشائى تسجد.. عقلى يسجد.. ضميرى يسجد.. روحى تسجد..

حينما سكت داخلى القلق وكف الاحتجاج ورأيت الحكمة فى العذاب فارتضيته، ورأيت كل فعل الله خير، وكل تصريفه عدل، وكل قضائه رحمة، وكل بلائه حب.. لحظتها أحسست وأنا أسجد أنى أعود إلى وطنى الحقيقى الذى جئت منه وأدركت هويتى وانتسابى وعرفت من أنا.. وأنه لا أنا.. بل هو.. ولا غيره..

انتهى الكبر وتبخر العناد وسكن التمرد وانجابت غشاوات الظلمة وكأنما كنت أختنق تحت الماء ثم أخرجت رأسى فجأة من اللجة لأرى النور وأشاهد الدنيا وآخذ شهيقا عميقا وأتنفس بحرية وانطلاق.. وأى حرية.. وأى انطلاق.. يا إلهى.. لكأنما كنت مبعدا منفيا مطرودا أو سجينا مكبلا معتقلا فى الأصفاد ثم فك سجنى.. وكأنما كنت أدور كالدابة على عينيها حجاب ثم رفع الحجاب.

نعم.. لحظتها فقط تحررت.

نعم.. تلك كانت الحرية الحقة.. حينما بلغت غاية العبودية لله وفككت عن يدى القيود التى تقيدنى بالدنيا وآلهتها المزيفة.. المال والمجد والشهرة والجاه والسلطة واللذة والغلبة والقوة..

وشعرت أنى لم أعد محتاجا لأحد ولا لشىء لأنى أصبحت فى كنف ملك الملوك الذى يملك كل شىء.

كنت كفرخ الطير الذى عاد إلى حضن أمه..

كانت لحظة ولكن بطول الأبد.. نعم تأبدت فى الشعور وفى الوجدان وألقت بظلها على ما بقى من عمر ولكنها لم تتكرر.. فما أكثر ما سجدت بعد ذلك دون أن أبلغ هذا التجرد والخلوص وما أكثر ما حاولت دون جدوى.. فما تأتى تلك اللحظات بجهد العبد بل بفضل الرب.. وإنما هو الذى يتقرب إلينا وهو الذى يتحبب

إلينا.. وما نتعرف عليه إلا به.. وما نعبده لحظة تمام العبادة إلا بمعونته.. وما ندخل عليه إلا بإذنه.. فهو العزيز المنيع الجناب الذى لا يدخل إليه بالدعاوى والأقاويل.

ولقد عرفت آنذاك أن تلك هى السعادة الحقة وتلك هى جنة الأرض التى لا يساويها أى كسب مادى أو معنوى.

يقول الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿واسجد واقترب﴾ (١٩ - العلق).

صدق الله العظيم..وما كل ساجد بمقترب إلا إذا خلع النعلين فألقى بالدنيا وراءه ثم ألقى بنفسه خلفها ودخل مسلم القلب عريان المشاعر خاشع الفؤاد ساجد الأعضاء.. حينئذ يكون القرب.. وتكون السجدة.

ولكم أتمنى أن أعاود تلك السجدة.

أو تعاودنى تلك السجدة.. ويتفضل على الله بالقرب ويأذن لى بالعبادة حق العبادة.. وأقول فى نفسى أحيانا.. لعلى لم أعد أخلع النعلين كما يجب وكما يليق بجلال المقام الأسمى.. ولعل الدنيا عادت فأخذتنى فى دوامتها وعاد الحجاب فانسدل على العينين وعادت البشرية فناءت بثقلها وكثافتها على النفس الكليلة ولكنى لا أكف عن الأمل وأسأل الله أن يشفع الأمل بالعمل سبحانه وسعت رحمته كل شىء.

الحب فى الكعبة

وسألت نفسى وأنا أطوف بالكعبة

ما بال المسلمين يطوفون الآن فى خشوع وتبتل فإذا خرجوا تفرقوا وانقسموا وأصبح كل منهم يطوف حول نفسه أو حول اسمه أو حول شيطانه.

أهى أدوار يمثلونها لبضع دقائق ثم يذهب كل منهم بعد ذلك إلى حال سبيله.

أيكون طوافهم طوافا ونسكا دينيا حقا أم تمثيلا.

هل أراد الله بالطواف أن يكون مجرد حركة معزولة عن السلوك والحياة أم أراد به أن يكون شعيرة دينية.. هى تكثيف وتلخيص للحياة كلها.

بل أراد الله أن تكون حياتنا كلها طوافا حول مشيئته فى كل صغيرة وكبيرة.

ولو أن العرب طافوا فى سياستهم حول نقطة واحدة كما يطوفون الآن،ولو أنهم اجتمعوا أبيضهم وأحمرهم وأسودهم فى رحاب رأى واحد كما يجتمعون فى الكعبة لما ذلوا ولما هانوا ولما أصبحوا عالما ثالثا أو عالما رابعا كما نراهم الآن.

وسألت نفسى فى دهشة.

وكيف بالطوافين حول الكعبة يحارب بعضهم بعضا، ويقتل بعضهم بعضا.. وعلى أى معنى إذا كانوا يطوفون.. وعلى أى شيء كانوا يجتمعون.

هل صدقوا حينما طافوا.

وهل صدقوا حينما اجتمعوا.

وهل صدقوا حينما قالوا.. الله أكبر.

بل كانت الدنيا عند كل منهم أكبر.

وكان كل منهم طوافا حول نفسه مسبحا برأيه مهللا لأفكاره صدق رسول الله عليه الصلاة والسلام حينما رد على الأعرابى الذى قال له.. أصلى الفروض الخمسة ولا أزيد.. فقال.. أفلح إن صدق.

فالقول مازال ساريا على العرب جميعا إلى اليوم.

أفلحوا إن صدقوا.

ويبدو أنهم إلى الآن.. ما صدقوا.

والحب فى السينما

أما الحب فى السينما.. فيبدو أنه أصبح الآن بضاعة مغفلين.

ما من قصة حب فى السينما إلا ونرى فيها طرفا يستغفل

الآخر أو نرى كلا منهما يستغفل نفسه ويغلف رغباته بالأشعار والكلام الحلو ويغمض عينيه على الكلام العسل سعيا وراء ليلة لذيذة.. والمخرج والمنتج يستغفلان الكل.. وكله مكسب.. ولا شيء حقيقي.. مثل إعلانات التلفزيون تحاول دائما أن تغويك وتستغفلك لتشترى أشياء لست فى حاجة إليها ولتجرى وراء بضاعة عندك ما هو أحسن منها فى بيتك.

والديكور والألوان والأزياء والموسيقى مؤثرات مثل الأفيون يحاول المخرج أن يخرك بها شهيتك ويخدر حواسك ويغسل مخك لترى ما يريد هو أن تراه ولتحب ما يريد هو أن تحبه.

والممثلون يختالون على الشاشة ويقولون كلاما مصنوعا ويتخذون أوضاعا مفتعلة والبطلة تكاد تقع على الأرض من فرط الرقة.

لا ترى أحدا يتكلم على طبيعته أو يمشى على طبيعته.

وكل قصص الحب تباديل وتوافيق قصة واحدة مملة مكررة.. أحبها وتزوجت رجلا آخر أو تزوجها وأحبت رجلا آخر.. ابنه ليس ابنه.. خيانة زوجية.. غيرة.. وجريمة قتل أو ضياع فى البارات بين الخمر والراقصات ومحاولة نسيان.. ودائما محاولات النسيان لا تكون إلا فى البارات وبين أحضان الراقصات.. ولا يفوت المنتج أن يمتعنا بتابلوه راقص فى الكباريه.. ثم أغنية

عاطفية فى القناطر.. ثم يفاجئنا بلطجى الكباريه عشيق الراقصة.. وماتش ضرب.. وحادث سيارة ويفقد البطل الذاكرة إلى آخر الموال.. وفى موسم المخدرات لا مانع من فيلم مخدرات.

صناعة استغفال وفن استغفال.

فن زخارف.. زخارف أقوال وزخارف أفعال.. ونقوش لكن على الماء ثم لا يبقى شىء.

أما الحب الحقيقى فشىء آخر تماما لا نجده فى أى فيلم.

الحب الحقيقى هو المودة والرحمة، وهو عطاء الفطرة الذى لا تكلف فيه ولا صنعة ولا احتراف، وهو صفة النفوس الخيرة وخلة الأبراز الأخيار من الرجال والنساء، وهو شىء آخر غير الذى يعرض علينا فى الأفلام، وهو لا يوجد إلا فى البيوت الطيبة التى ليس لها صوت ولا تسمع لها سيرة ولا تحكى عنها قصص ولا أخبار.

لا شىء مما نرى فى السينما يمكن أن يبنى بيوتا أو يصنع نفوسا سوية وإنما أغلبها يهدم ويضيع ويقدم نماذج مريضة يظنها الأولاد قدوة فنراهم فى البيوت يقلدون النجوم والنجمات ويتهتكون فى المشية. ويغنجون فى النطق ويظنون أنهم أصبحوا عباقرة.

ولا أجد سببا واحدا معقولا لإعادة أمثال هذه الأفلام فى التلفزيون إلا أن تكون خطة إعلامية مقصودة لتغييب الوعى.

ومن حق المواطن أن يرى فى التلفزيون ما يفيده وأن تجنبه أجهزة الرقابة ما يضره وما يضيعه.

وإذا كان إهمال التلفزيون لهذه الأفلام سوف يؤدى بالسينما إلى الافلاس فلتفلس.. فلا غرابة أبدا فى إفلاس صناعة رديئة.. ولا ضرر فى ذلك بل فائدة.

ولا أعفى الأفلام الأجنبية الشرقى منها والغربى من هذا النقد، وربما كانت أخطر لأنها أشطر فى الحرفة وأمهر فى الصنعة وأفحش فى المضمون.. والقليل منها هو الذى يمكن أن يستثنى مثل الأفلام التاريخية والتسجيلية والعلمية فمعظمها جيد ومفيد.

ولا أدرى لماذا لا تقتحم السينما العربية هذه الميادين.. وقد فعلت ذلك فيما مضى وقدمت الناصر صلاح الدين وفجر الإسلام والرسالة.

هكذا كانوا يفعلون فى الماضى قبل أن يدخل تجار وكالة البلح ميدان الإنتاج السينمائى وقبل أن يصبح شعار الفيلم الناجح.. هو.. الضرب للركب والضحك بالهبل.. واللى ما يشترى يتفرج..

اسأل نفسك مرتين قبل أن تشترى تذكرة سينما

وتأكد أنك لن تشتريها أبدا.

على من يرفعون عصا الشريعة ؟

الشريعة لم تنزل لمجلس الوزراء، ولكنها نزلت إلى كل مسلم ليطبقها فى نفسه أولا وفى سلوكه وفى بيته وفى جيرانه وفى عشيرته فكل مسلم راع وكل مسلم له دولته الخاصة وله رعيته التى عليه أن يطبق فيها أمر الله أولا قبل أن يتوجه بالأمر إلى غيره..

والآيات التى جاءت فى القرآن الكريم فى سورة المائدة: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ (٤٤ – المائدة) ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ (٤٥ – المائدة) ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ (٤٧ – المائدة) هذه الآيات نزلت لكل مسلم وإلى كل راع فى رعيته، وهى ليست مسئولية ينفرد بها الحاكم ولا أمانة اختص بها مجلس الوزراء.

بل إن القرآن الكريم جاء صريحا بأن الله لن يغير ما بالناس حتى يبدءوا هم بتغيير ما فى نفوسهم.

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (١١ – الرعد)

فإقامة شرع الله فى دولة النفس هى البداية وهى الشرط الأول الذى بدونه لا تغيير ولا تبديل.

والله يخاطب عيسى فى حديث قدسى قائلا:

«يا عيسى عظ نفسك فإذا اتعظت فعظ الآخرين وإلا فاستح منى».

...

فالشريعة لم تنزل لنسير بها فى مظاهرة هاتفة إلى سراى عابدين دون أن يفكر هذا الذى يهتف ويتظاهر ويحمل اللافتات ويقذف بالطوب ويحرق الأتوبيسات وهو غالبا مخدوع أو عميل لدول كبرى ودول صغرى وأحزاب تستعمل يده وتستعمل حنجرته وتستعمل الدين لتثير الانقلابات والفتن.. هذا الذى يرفع عصا الشريعة على الحكومة دون أن يفكر فى أن يرفعها على نفسه أولا لن يصل إلى خير.. ولن يحقق نفعا.. وإذا استطاع أن يحمل الحاكم على تطبيق الشريعة عنوة دون تجاوب من القاعدة، ودون همة خاصة من كل فرد على تطبيق هذه الشريعة فى نفسه فلن يصل إلى شىء ولن يكون التغيير إلا مجرد تغيير ظاهرى ووضع لمزيد من الملصقات مثلما فعل النميرى فى السودان فقطع يد سارق الجنيهات العشرة وأعفى سارق المليون.

والخومينى يقول إنه يطبق الشريعة فى إيران والقذافى يقول إنه يطبق الشريعة فى ليبيا وضياء الحق يقول إنه يطبق الشريعة فى باكستان فأى تطبيق من هذه التطبيقات يريده المتظاهرون.

وفى السعودية تقام الحدود بالفعل فتقطع يد اللصوص ويرجم

الزناة ومع ذلك فقد طلع المهدى وعصابته على الكعبة بالمدافع الرشاشة بدعوى تطبيق الشريعة.

إنها إذن ليست حكاية الشريعة.

وهؤلاء الناس لا يريدون شريعة بل يريدون أنفسهم حكاما.. إنها شهوة حكم ومطلب سلطة.. وما اللافتات المرفوعة إلا لافتات تمويه وما الهتافات إلا هتافات تعمية.. والشريعة بريئة من أهواء هذه الطائفة التى خططت لتعيد فتنة الخوارج فأرادت أن تخرج علينا رافعة المصاحف على أسنة الرماح هاتفة على الحاكم أن يطبق حكم الله..

وكما قال الزميل خالد محمد خالد لا نجد ردا نرد به عليها أبلغ من رد على بن أبى طالب.. إنها قولة حق أريد بها باطل..

وقد بدأت الفتنة الكبرى من ذلك التاريخ القديم.

واليوم نرى الزمن قد استدار دورته ونرى الإسلام يدفع به إلى فتنة أكبر وأشمل فنرى المسلم يقتل المسلم فى كل مكان وحملة لواء لا إله إلا الله يذبح بعضهم بعضا فى لبنان والعراق وإيران وسوريا وليبيا وكل بلد عربى. وهم هنا يريدون أن يقتل بعضهم بعضا تحت راية الشريعة وباسمها.

وقديما لم يقطع عمر بن الخطاب يدا فى مجاعة.. ولم يقطع النبى ﷺ يدا فى حرب..

ونحن اليوم فى حرب أو نكاد.. وفى فتنة هوجاء أسوأ من كل الحروب.. وما أسهل استئجار أربعة شهود زور لقطع يد برىء.

وقد أوصانا الرسول عليه الصلاة والسلام أن ندرأ الحدود بالشبهات.. وهل ترون عصر شبهات أكثر من عصرنا الذى يموج بالفتن كقطع الليل المظلم..

تمهلوا يا قوم ولا تعجلوا فتدفع بكم العجلة إلى الظلم.. فالشريعة ليست قضية انفعال ولا مسألة هوى.. بل هى مطلب حقيقى وعزيز ويجب أن تصدق فيه النيات، ويبدأ فيه الطالبون بأنفسهم وتتجاوب فيه القاعدة مع القمة ويأتى فيه الإصلاح على مكث وعلى تروٍّ وعلى تدرج، فنحن فى الظرف الذى يسميه الفقهاء.. شيوع البلوى.. تماما كما كان انتشار الخمر فى الجاهلية بلوى شائعة.. ولذلك نزلت آيات تحريمها على مكث وتدرج واستغرقت مراحل تحريمها أكثر من اثنتى عشرة سنة.. وكان هذا درسا من الله يعلمنا فيه مرونة التشريع الإلهى ومناسبته لكل الظروف.

ثم هناك ولا شك قضايا فقهية وقانونية فى حاجة إلى إعادة تقنين وإعادة نظر مثل قضايا الرشوة والاختلاس والعمولات والسرقة من مال عام.. ومثل تلك السرقات لا يدخلها المشرع الإسلامى تحت بند قطع اليد.. لأنه يعتبر أن المال العام فيه شبهة ظلم فلا يجيز قطع اليد فى سرقته.. وبذلك نراه يقطع اليد فى

عشرة جنيهات ويعفى مختلس المليون الذى سرقها من قطاع عام.. وهذه مسألة تحتاج إلى إعادة نظر لأن أخطر سرقات اليوم هى سرقات القطاع العام وإعفاء مثل تلك السرقات من الحد سوف يشجع عليها.. وقطع يد صغار اللصوص وإعفاء كبارهم سوف يكون فتنة.

إن الدراسة مطلوبة وحسن الفهم عن الله شرط لتطبيق شريعته.

* * *

ثم إن الشريعة ليست مجرد حدود.. فالعدل شريعة والرحمة شريعة والعلم شريعة والعمل شريعة والله أمر بالعلم والعمل فى أكثر من ألف موضع وأمر بقطع يد السارق فى موضع واحد وأول الأوامر مطلقا كان ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾.

وبرغم هذا الأمر الصريح بالقراءة وهو الأمر الذى له أولوية مطلقة فى الإسلام فنحن أمة لا تقرأ ولا تعقل بل نفكر فى المظاهرات والهتافات والمسيرات لنطبق الشريعة.. ولكن ما هى الشريعة.. إنها هذا كله.. إنها العلم والعمل والعدل والرحمة ومكارم الأخلاق.. وهى ليست مجرد حدود.. وما الحدود إلا سياج الأمن والحماية الذى تضربه الشريعة حول خيمة المسلمين.. ولكن الشريعة ككل أكبر من موضوع الحدود فهى قانون الرحمة العام وقانون الحب ودستور النماء والتطور للمجتمع الإسلامى.

وما أقول هذا الكلام إلا حبا فى الشريعة وتمسكا بها وخوفا عليها من سوء النيات وسوء التفسير وسوء الفهم وسوء التطبيق وحرصا عليها من متاجرة المتجرين المتآمرين.

* * *

والإسلام الحق لا مدخل فيه للإكراه والعنف والمظاهرات والمزايدات السياسية بين أحزاب اليمين وأحزاب اليسار ولا مكان فيه للهوى والغرض والمتاجرة بالعقول.

ولا يصح فى الإسلام إلا الصحيح.

ولا يخلص إلا ما كان خالصا لوجهه تعالى.

فتمهلوا يا قوم.. ولا تسارعوا باتهام بعضكم بعضا.. فكلنا يسير على الشوك وكلنا يمشى على الألغام.. وكلنا مستدرجون من حيث لا ندرى بمكر الماكرين من الداخل وتآمر المتآمرين من الخارج.. ولا يسلم موطئ قدم من حفرة ولا تسلم عتبة من فخ منصوب.. والأعداء حولنا كبارهم وصغارهم لا يريدون لنا سلاما وهم يخططون لخرابنا.. ويا حبذا لو جاء خرابنا بأيدينا لنوفر عليهم مؤنة القتال.

فلنتمهل .. ولنفكر مرتين.

وليرفع كل منا عصا الشريعة على نفسه أولا وليطبقها فى سلوكه وفى بيته وليغير من نفسه.

فإذا غيرنا من أنفسنا فسوف يغير الله ما بنا.

فذلك وعد الله.. ولن يخلف الله وعده.

ولندع تقنين الشريعة على مستوى الحكم يأخذ مجراه فى هدوء بين رجال قانون متخصصين ورجال فقه متعمقين وأهل نظر واجتهاد متنورين يأخذون لنا بالأحسن من كل شيء.

﴿واتبعوا أحسن ما أُنزل إليكم من ربكم﴾ (٥٥ – الزمر).

الله يوصينا بهذا مع أن كل ما أنزله إلينا حسن.

والله يلفتنا بذلك إلى تفاوت مراتب الأمر.. فالله أمرنا بالعدل ولكنه أمرنا أيضا بالرحمة.. والرحمة فوق العدل.. ومن يأخذ بالرحمة يأخذ بالأحسن.

ألم يقل نبينا محمد عليه الصلاة والسلام للمسلمين.

«تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغنى منها فقد وجب».

أى حاولوا تصفية الخلافات التى تقتضى الحدود فيما بينكم فيعفو الواحد عن الآخر أو يأخذ دية ولا تبلغونى فإن ما بلغنى منها فقد وجب تنفيذه.. يقول هذا كراهة لتنفيذ الحدود وإيثارا للعفو والتراحم بين المتخاصمين.

وهذا هو الإسلام.. دين السماحة والتراحم والمحبة والمغفرة.. الدين الحنيف الذى لا يلجأ إلى العنف إلا حينما يستنفد كل

فرص الإصلاح الدين الذى جاء رحمة للعالمين.

فلنحاول أن نكون مسلمين حقا.. رحماء حقا.. إنسانيين حقا.. فتلك هى بطاقات المؤمن الربانى الوارث الذى يسير على القدم المحمدية.

أما العنف والإرهاب والانقلاب والإضراب والتظاهر وخطف الطائرات وتلغيم السيارات فتلك بضاعة الساسة الماكرين وأهل الأغراض والأهواء والمهيجين والمجرمين والمتاجرين بالعقول.. ولسنا منهم.. بل ضدهم فهم لن يفتحوا لنا بابا إلى نجاة بل سوف يفتحون لنا جهنم على مصاريعها.

من هو الأصولى..؟

كلمة نسمعها كثيرا هذه الأيام هى الأصوليون.. وطائفة الأصوليين هم الملتزمون بحرفية النصوص السائرون على قدم النبى عليه الصلاة والسلام حذو النعل بالنعل لا يزيدون على ما يقوله حرفا ولا ينقصون حرفا يقلدونه فى كل فعل.. يحاكونه فى ملبسه وفى مأكله وفى سيره وركوبه وفى صحوه ونومه وفى حياته وسعيه لا يجددون فى شىء حتى ما يقتضى التجديد ويرفضون التطوير والتحديث ويحاربون المفاهيم العصرية بكل أشكالها ومذهبهم أنه إذا تغير القالب تغير معه القلب وأن الإسلام شكل ومضمون ولا يصح أن يتطور شكلا حتى إذا كان هذا التطور الشكلى فى خدمة المضمون ومثلهم الأعلى هو الجمود على القديم وهم يرون أنهم المسلمون بحق وأن سواهم ناقص فى إسلامه وهم أبدا فى حرب مع أى جديد وحجتهم أمام كل مشكلة هى..

أهذا الجديد فعله رسول الله عليه الصلاة والسلام؟

أهذا الجديد قال به رسول الله عليه الصلاة والسلام؟

فإن لم يكن فعله ولا قال به رفضوه ولو كان حسنا وحاربوه ولو كان أكثر تناسبا مع العصر ونبذوه ولو حبذه العقل.

وهم أهل تشدد على أنفسهم وعلى غيرهم..

ولنا مع هؤلاء المسلمين الأفاضل وقفة هادئة.. فالإسلام نفسه ليس دين جمود بل دين حركة وليس دين شكل بل دين فعل.

يقول الله عن المنافقين:

﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾ (٤ -المنافقون).

فهم بحسب الشكل يثيرون إعجابك ولكن لا تحكم بالشكل بل استمع إليهم يتكلمون ﴿وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خُشُب مسندة﴾ (٤ -المنافقون).

يقول الله: ﴿هم العَدُو فاحذرهم﴾.

وفى الحديث.. إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى أعمالكم وإلى قلوبكم.. ثم إن فهم القرآن لا يصح أن يقف عند الحروف ولا ظاهر الكلمات.

يقول الله فى سورة الأنفال:

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ (٦٠ – الأنفال)

ولم يقل مفسر واحد أن التأهب للأعداء يجب أن يتوقف عند رباط الخيل وأننا يجب أن نلزم النص والحرف.. ولم يقل واحد بأن هذا حدود المفهوم القرآنى.

وقد اختلف العصر وتحول سلاح الفرسان إلى سلاح مدرعات

ثم استجدت الصواريخ. ثم أشعة الليزر.. ثم الرؤوس النووية.. ولا نهاية للتطور.. فكيف بالمسلم يقف عند الحرف ولا يتجاوز ظاهر الكلمات ويتصور أنها أصولية فى الفهم أن يحارب عدوه على فرس.

وقد ركب النبى عليه الصلاة والسلام البغلة.. فلماذا لا يلزم الأصوليون ركوب البغال فى أسفارهم..؟ ولماذا نرى شيوخهم يركبون المرسيدس ويطيرون فى الكونكورد ونرى شبابهم يحملون مدافع الكلاشنكوف (صناعة روسية)؟

فلماذا تناقضوا مع أنفسهم ومع الأصولية التى يدعون إليها فى هذا؟ ولماذا لم يتمنطقوا بالسيوف ويحملوا كنانة السهام؟

ولماذا لا يقضون الحاجة فى الخلاء بدلا من المرحاض كما كان يفعل المسلمون الأوائل؟

لماذا أخذوا عن النبى اللحية والسواك وقصروا الجلباب ورفضوا الباقى؟

إذا كان العصر والمصلحة واللياقة والمناسبة اقتضت ذلك فلماذا ينكرون علينا ما أباحوا لأنفسهم..

وهل نقول نحن أنصار التحديث والتطور أكثر من هذا.. إن العصر والمصلحة واللياقة والمناسبة وما يستحسنه العقل هو روح الإسلام ومضمونه وأن الشكل يجب أن يتطور متناسبا مع

مقتضيات العصر وأن هذا من كمال الإسلام وليس من نقصه.

ولماذا يقفون عند الشورى ويحاربون الديمقراطية..؟ مع أنه لا قيام للشورى فى حياتنا العصرية الجديدة بدون معارضة وأحزاب وحرية صحافة.. فهذه الأجهزة هى الشكل الجديد الذى يمكن للشورى ويجعل لها أثرا وفعالية.. ولماذا يرفضون الاجتهاد مع أن الاجتهاد هو أسلوب العقل الوحيد لمواجهة التحديات وفهم المتغيرات.. والقرآن يأمر بالتدبر والتعقل والتفهم فى كل آية.. والله يقول للكافرين.. ﴿قل هاتوا برهانكم﴾.. فالدين عندنا عقل واقتناع ومنطق وليس مجرد عاطفة واستسلام أعمى.

إن المجتمع الإنسانى اليوم أشبه بكائن تعملق وتضخم بشكل يقتضى منه أن ينسلخ عن إهابه ويغير جلده.

والله يضرب لنا المثال فى الزواحف والحشرات واليرقات التى تنمو وتتضخم وتمر بعدة انسلاخات تنضو فى كل مرة جلدها لتلبس جلدا جديدا أوسع وأكثر ملاءمة لمقاسها الجديد..

وبرغم أن الجلد يتغير إلا أنها تظل هى هى نفس الحشرة.. إن الشكل يتطور دون أن يضيع المضمون.. بل إن المضمون يتأكد أكثر وأكثر فى إهابه الجديد.

وهذا هو نفس الشىء فى الإسلام..

إن الإسلام لن يضيع بالاجتهاد والتحديث ولكن سيتأكد أكثر

وأكثر وجوهره سوف يلمع أكثر وأكثر فى الأشكال الاجتماعية الجديدة المتطورة.

والعكس صحيح فإن الجمود هو الذى سيضيع الجوهر الإسلامى النفيس، وهو الذى سوف يسجن الحيوية الإسلامية فى زنزانة التعصب والأفق الضيق.

إن المسلمين الأوائل قطعوا يد السارق بالنص القرآنى الصريح.

والفقهاء قالوا إن الحد لا ينطبق فقهيا على السارق من مال عام كما لا ينطبق على الرشاوى والعمولات والاختلاسات ولا على تزييف النقود وأنه لا ينطبق إلا على السرقة من مال خاص بحجة أن كل هذه متغيرات استجدت فى مجتمعاتنا العصرية وجاءت مع القطاع العام والتأميم والنظم الاشتراكية ولا توجد عنها نصوص.

ولم يحاول أحد أن يجتهد مع أن هذه المتغيرات جاءت معها بسرقات هائلة بالملايين.. سرقات أخطر ألف مرة من نشل محفظة أو كسر خزينة.. لأنها حولت الاقتصاد كله إلى غربال من الخروق وجوعت الشعوب وحرمت الملايين.

ثم جاءت المخدرات.. الهروين والكوكايين والماكستون فورت وعقاقير الهلوسة.. فهوت كالمطرقة على عقول الشباب فأتلفتها وأهلكتها.

وتلكأ الاجتهاد..
وتردد المشرع
وتباطأ الفقهاء واختلفوا..
وكثرت حوادث الاغتصاب والعنف والاعتداء على الفتيات.

وفى قضية الخلافة والحكم والملكية والجمهورية والاشتراكية والرأسمالية استعرت الخلافات أكثر وأكثر وتاه المسلمون فى بحر غريق من الجدل وخرجت كل فرقة على الأخرى بالمدافع الرشاشة.. وادعى كل واحد أنه أصولى.

ولا حجة عند الأصولى، ولا نص يكفى لأن يحمل مدفعه الرشاش ليقتل من يخالفه، وإنما هو ضيق الأفق وضيق الصدر وهوى النفس وغرور الرأى الذى يخيل لصاحبه أنه كل شىء.

وإنما نحن أمام وضع يحتاج إلى فكر جديد.

وإذا كانت هذه الخلافات تدل على شىء فإنما تدل على حاجتنا إلى فكر جديد وإلى اجتهاد وإلى أن تكون عندنا فلسفة إسلامية وفكر إسلامى نشط.. وسماحة خلق.. وتواضع نفس.. وألا تدعى فرقة أنها أصولية وأنها الوحيدة صاحبة الإسلام الكامل وصاحبة القول الفصل.. وإنما يستمع كل فريق إلى الآخر فى رحابة صدر دون أن يطلق الرصاص.. ودون أن يطلق الاتهامات.. ودون أن يكفر الرأى المخالف.

وهذه السماحة.. هى الإسلام عينه وليس ما يقوله الأصوليون

ولا ما يدعيه المتعصبون ولا ما تزعمه كافة الفرق التى تدعى كل منها أنها الفرقة الناجية.

إن الصورة الشائعة عن المسلم الأصولى بأنه إنسان رافض متشدد عابس متجهم عنيف دموى هى صورة كاذبة.. فما هكذا كان المسلمون الأوائل وما هكذا كان محمد عليه الصلاة والسلام.. وإنما كان مثالا للحلم والصبر وسعة الصدر والتواضع وحسن الاستماع إلى الخصم والجدل بالتى هى أحسن والعفو عن المسىء.

ألم يدخل مكة غازيا منتصرا على أعداء الأمس الملطخى الأيدى بدماء المسلمين ليقول فى سماحة ومغفرة: اذهبوا فأنتم الطلقاء..

فأين هذا من أصولية الخومينى الذى دخل طهران منتصرا ليعلق خصومه على أعواد المشانق، ويقول بالتصفية الدموية الكاملة لحكم الشاه ولمجاهدى خلق ولكل من يفتح فمه برأى مخالف..

لقد أخذ صاحبنا الإيرانى عن النبى لحيته وجلبابه ولم يأخذ عنه عدله وحلمه ومغفرته ومكارم أخلاقه.

وهذه أصوليتهم

وهذه هى السنة المطهرة فى مفهومهم الأصولى

ولكن النبى عليه الصلاة والسلام ترك لنا تاريخا يشهد على

سلوكيته المثلى ويفصل سنته الكاملة ويعرفنا بالأصولية الحقة لعشاق الأصول ممن يأتون بعده.

وليست الأصولية دعوى بل سلوك... وليست جدلا بل عملا.

وليست شعارا بل فقها محكما وليست مسألة خلافية بل نهجا ثابتا.. ويسهل على كل صاحب دعوى أن يتاجر وأن يزايد فى أى موضوع إسلامى ولكن يستحيل عليه أن يتاجر فى محمد عليه الصلاة والسلام ولا أن يزايد عليه ولا أن يساوم فى سنته ومحمد عليه الصلاة والسلام والصفوة من أولى الألباب من صحابته كانوا مثالا فى حب العلم وفى استزادة منه وكانوا أهل تفكر لا أهل تعصب.

ولقد فهم عمر بن الخطاب حد السرقة الذى أتى به القرآن فلم يقطع يدا فى عام المجاعة برغم قطعية النص وصراحته.. ولم يفعل عمر هذا مخالفة منه للنص القرآنى بل فعله طاعة وتفهما وتفقها لما فيه، وإدراكا منه لروح الشريعة قبل نصها.

وهذه هى الأصولية فى الفهم.

وهى غير أصوليتهم الجامدة التى لاتتخطى الحروف، لقد ترك لنا المسلمون الأوائل أمثلة حية لفهمهم لقرآنهم ولن يستطيع أحد أن يخدعنا بحجة الأصولية.. فنحن فى مصر بلد الوداعة والسماحة والاعتدال أكثر أهل الإسلام قربا من الأصول.

إن إخواننا الشيوعيين يتناسون كل النماذج الإسلامية ولا يتمثلون إلا بواحد هو أبى ذر الغفارى رضى الله عنه ويرون فيه وحده نموذج الإسلام الصحيح، لأنهم قرءوا فى سيرته أنـه كان ثائـرا على الأغنيـاء، وكان عنيفـا فى ثورتـه، وكان يؤلب عليهم الخليفة ويطالب بنزع ملكياتهم وتـوزيعها عـلى الفقراء، وكان يهيج عليهم الفقراء أينما سار.

وتحفظ لنا سيرة أبى ذر رضى الله عنه هذه الحكايات ولكنها أيضا تحفظ لنا أقوال ومواقف الصحابة من أبى ذر، بل أكثر من ذلك رأى الرسول عليه الصلاة والسلام حينما طلب منه أبو ذر الولاية وكيف أنكر الرسول عليه الصلاة والسلام طلبه وكيف أجابه فى أدب النبوة بأن الولاية مسئولية، وعبء وأنه لا يصلح لهذا العبء ولا يقدر عليه، ولم يكن هذا لنقص فى إسلام أبى ذر وإنما لما فى طبعه من عنف وانفعال وسرعة غضب ولما فى صحته من وهن.

وإجابة النبى عليه الصلاة والسلام هى مؤشر صحيح لجوهر الدعوة الإسلامية ولصلاحيات الولاية ولنظام الحكم الإسلامى الأمثل، وأنه نظام يغير ما فى الناس بالحسنى واللين والقدوة الطيبة وليس بالثورة والعنف والانقلاب.

وسيرة النبى عليه الصلاة والسلام على مدى أربعين عاما مع خصومه وأصحابه كانت تأصيلا وتأكيدا لهذا الجانب فى الإسلام..

وكانت ردا كافيا لكل من قال بالعنف كأصولية إسلامية.

ألم يصبر النبى عليه الصلاة والسلام على أذى الكفار ثلاث عشرة سنة يتلقى أذاهم وعدوانهم ولا يرده عليهم حتى أذن الله للمسلمين بالدفاع عن أنفسهم.. وقرر القرآن رخصة العنف لضرورة واحدة هى الدفاع عن النفس، ولدفع عنف مماثل يهدد الحياة، وأن يكون هذا بقدر ذاك ولا زيادة.

وكل هذه مبادئ مقررة وثابتة فى أصل الدعوة.

لكن تجار العنف وسماسرة الانقلاب لا يكفون عن الترويج لبضائعهم الخاسرة طلبا للسلطة والجاه والتحكم والدنيا،ولأهداف وغايات ومصالح لا علاقة لها بالدين وإن اتخذوا الدين ستارا ومطية إلى غاياتهم..

والمشكلة فى هذا العصر أن كل الفرق تلبس قناع الدين،وأن الكل يرفع راية لا إله إلا الله، ويربى اللحية ويتكلم، عن الأصولية وفى القلوب ما فيها..

ومن واجبنا تصحيح ذاكرة المسلم عن التاريخ وكشف المؤامرة الواسعة لتشويه الإسلام، والمتاجرة به فى لعبة السياسة واستعماله لقلب نظم الحكم، وإشعال الثورات وتأجيج الصراع الطبقى وإقامة المذابح الدموية،كما أرى من واجبنا أن نحارب الاتجاهات الرجعية الداعية إلى الجمود وتعطيل العقل وتعويق

المسيرة الشريفة التى بدأها الإسلام من أربعة عشر قرنا نحو مزيد من العلم والعمل والتقدم.

ومن الأصول الإسلامية احترام العقل والتجديد المفيد النافع والتطوير نحو الأحسن فى كل شىء والحض على العلم والعمل ومكارم الأخلاق والاعتدال والوسطية المثلى فى السلوك والحياة.

ومن الأصولية أن يفكر المسلم ويجتهد كلما استجدت متغيرات لا يجد لها نصا وألا يتجمد على التقليد.

وأمام متغيرات مثل الإيديولوچيات الديموقراطية والصراع حول الرأسمالية والشيوعية ومشاكل الاقتصاد الحديث ونظام البنوك ومسألة الفوائد والأشكال الجديدة من الجريمة والسموم البيضاء والإرهاب والدور الإعلامى للسينما والمسرح والتلفزيون.. لابد أن يكون للإسلام فكر وعطاء واجتهاد وألا يتوقف لمجرد أن هناك فرقة أو فرقا قررت أن تتوقف فإن الزمن نفسه لن يتوقف لأحد.

الفن. حرام أم حلال..؟

الفن أحد المواهب التى يتميز بها الإنسان وهو مهارة ينفرد بها مثل الكلام والتفكير وحرية الاختيار فهو الحيوان الوحيد الذى يتكلم ويفكر ويبدع.

والفن هو تجلى أحكام الأسماء الحسنى الإلهية «الخالق والبديع والحكيم والعليم» فى النفس الإنسانية التى جعلها الله بحكم كرمه قابلة لعطاء الحكمة والعلم والخلق والإبداع.. فكما تجلى السميع فى سمع الإنسان والبصير فى بصره كذلك تجلى البديع فى إبداعه.. وتجلى الخالق فيما يخلق الإنسان من فنون.. فالفنون كلها مهارات طبيعية نولد بها.. وهى بعض عطايا الله ونعمه.

ولكن الإنسان الذى ولد حرا ومختارا وخطاء ومتمردا لم يوظف تلك المهارة دائما فى الخير وإنما انحرف بها أحيانا إلى الهوى والغرض والغواية وإلى مجرد جلب الشهرة والجاه والتأثير أحيانا بالنفع وأحيانا بالضرر فى الآخرين.

فالفن الذى يربى العواطف رأيناه فى أكثر أفلام السينما يلعب بالعواطف ويلهو بالعقول والشعر الذى يسمو بالوجدان رأيناه فى أكثر الأغانى يهبط بالوجدان ويسفل بالمشاعر والموسيقى التى ترتفع بنا إلى آفاق الجمال والتأمل رأيناها تهبط بنا إلى الترقيص وحركات النسانيس وقل أكثر من هذا فى هزليات المسارح وفى

الحوار البذىء وفى المشاهد المسفة.. وفى عروض أقرب إلى الأفعال الفاضحة فى الطريق العام.

ولأن الفن يدخل إلينا الآن خلسة من تحت الباب فى الصحيفة اليومية والكتاب ويتسلل إلينا فى غرفات النوم فى التليفزيون والكاسيت.. فقد تحول إلى وسيلة جهنمية فى تشكيل الأجيال وفى تربيتها أو إتلافها وغسل مخها.

وبهذا أصبح الفنان قادرا على أن يقتل وأن يضيع وأن يميت أمة كما أنه قادر على أن يحييها ويبعثها..

ولأن الفن سلاح قاتل فلا يصح أن يكون حرا حرية مطلقة، وحرية الفنان وحرية الفن دعاوى غير صحيحة، فالفنان حر مسئول محاسب،وكحامل أى سلاح يمكن أن تسحب منه رخصة استعماله إذا أساء هذا الاستعمال.

وإذا كان الفنان يطالبنا بأن نحميه فالجمهور القارئ والمشاهد وهم بالملايين لهم هم الآخرون حق الحماية من الإسفاف الذى يعرض عليهم.

وكلمة فنان لا تعنى العصمة من المساءلة ولا تعنى الحصانة، بل على العكس تعنى المسئولية ومحكمة النقد وسيف الرقابة حماية ضرورية للمواطنين.

والتليفزيون يحتاج إلى أكثر من هذا لأنه يباشر تأثيره على

الطفل والصبى واليافع وعلى المرضى فى أسرتهم وعلى المراهقين فى خلواتهم.

التلفزيون فى حاجة إلى مجلس حكماء يمنع هذا السيل الهابط من الأفلام والعروض المبتذلة والأغانى الساقطة والحوار المسف والرقص البذىء.

وليس هذا كلام فى الدين.. وإنما فى أوليات علم الاجتماع.
أما الفنان الذى يسألنى.. هل ما أفعله حلال أم حرام؟
فأقول له.. أنا لا أفتيك.. ولكن يفتيك قلبك.

اسأل نفسك هل ما تفعله نافع ومفيد للناس؟ أم تراه ضارا بهم؟.
وستعرف أين أنت.

ولا مانع من أن يكسب الفنان ويزداد غنى ولكن من طريق يجعل مشاهديه وقراءه يكسبون هم الآخرون ويزدادون به ثراء وغنى.

أما الفنان الذى يهبط بقرائه وينزل بمشاهديه فإن ما يأخذه من مال لا يدخل فى باب الكسب لكن فى باب النشل.

والذى يسأل.. هل هناك فن ردىء.. وكيف يمكن أن يسمى فنا برغم رداءته.. أقول بل هو فن ولا يمتنع على الفن أن يكون رديئا.. لأن الفن مهارة وموهبة والموهبة يمكن أن يوظفها صاحبها

فى الخير ويمكن أن يوظفها فى الشر.. وهى كالقوة العضلية وكحدة البصر وحدة السمع وسرعة البديهة والذكاء وكلها مواهب أحيانا توظف للخير وأحيانا للجريمة.

والفنان يمكن أن يكون شريرا فيعبر عن شره فى فنه ومن الأعمال الفنية العالمية ما يقطر تشاؤما ومنها ما يسيل حقدا ومنها ما ينبض بالعدوانية ومنها ما يحض على الفوضى ومنها ما يدعو إلى المادية والإلحاد والرفض والعدمية.. وأصحاب هذه الأعمال فنانون عالميون من حملة النياشين والجوائز.. ولهم جاه وشهرة وجمهور.. ولهم يخوت وقصور.

ولكن هذا الفن السالب يدخل عند الله فى باب الذنب وإن كان فى ناموس الدنيا يدخل فى باب الحسنات ويدخل أصحابه فى باب العظماء.

ومقاييس الدنيا تخطئ أحيانا وهى تتغير دائما وفى جميع الأحوال.. فكم من ملايين المشيعين ساروا يبكون خلف جنازة ستالين.. وكم كتابا مجده وكم مقالة عظمته وكم تمثالا ارتفع له وكم عملة ذهبية صكت باسمه.

ثم تغيرت المقاييس فأصبح الممجد ملعونا والمعظم مطرودا.
ولا ندرى ماذا يجرى غدا فى العالم الذى يتغير فيه كل شىء.
وما يجرى فى بورصة العظمة الفنية أعجب.

وبالأمس بيعت لوحة للفنان فان جوخ بأربعين مليون دولار.. وفى حياته كان يحاول أن يبيعها برغيفين فلا يجد مشتريا.

وبيكاسو مات فى قمة مجد فنى ولا ندرى بعد مائة سنة ماذا يقول الفنانون أنفسهم فى تراثه الفنى.

أغلب الظن أن معظم أعماله سوف تدخل فى باب العبث والتجارب العبثية.

ويظل هناك مقياس لا يخطئ ولا يخيب لكل أعمال الإنسان فنية كانت أو فكرية أو فلسفية. أو سياسية أو اجتماعية هو المقياس الذى جاء به القرآن.

﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض﴾ (١٧ - الرعد).

فالفن الخير البناء هو الذى سيبقى لصاحبه وهو الذى سيغدو له حسنة فى الدنيا وحسنة فى الآخرة.

أما الفن الضار والهدام والهابط.. فهو الخسار والبوار مهما جلب لصاحبه من ثراء ومال ومجد دنيوى ومهما حمل له فى قبره من جوائز وأوسمة ونياشين.

وكم من فنون هى فى النهاية مجرد لهو وقتل للوقت ومضيعة للعمر.

وكم من أشعار عظيمة السبك وهى مع ذلك غزل فى المذكر أو مدح لحاكم ظالم أو هجاء موتور أو زهو مغرور أو تأله فارغ.

وهى فن متألق وكلمات تخلب اللب ولكنها فى الآخرة أوزار يتمنى صاحبها لو لم ينطق بها، ووصمة يتمنى لو يبرأ منها.

إلى أين نسير ؟

يلفنى عالم من الهدوء والسكينة والشاعرية كلما عادت بى الذاكرة إلى أيام زمان وتأتى المشاهد إلى خيالى ومعها صوت الوتريات الموسيقية الرقيقة وقصائد عبد الوهاب وياليل ياعين وكلنا نحب القمر وشجانى نوحك يابلبل وكروان حيران ومطولات أم كلثوم التى كانت تستمر ثلاث ساعات والأذن تسمع فى استرخاء وخلو بال والرؤوس تهتز فى طرب وكمان ياست كمان.. لا استعجال ولا قلق ولا توتر.. وفى الصفوف الأولى تجلس الصفوة من رجالات مصر من أطباء ومهندسين وفنانين وبكوات.. والشوارع خالية آخر الليل وأفيشات الأفلام تسطع عليها الأضواء.. الوردة البيضاء.. العزيمة.. فجر الإسلام.. دعاء الكروان.. ورذاذ المطر المنعش.. وطعم سندويتش لذيذ بالفول.. وأحلام رفافة تهدهد القلب.

أيامها لم نكن نعرف لنا عدوا سوى الإنجليز.. ولم تكن قد ظهرت بعد التيارات الشيوعية والماركسية التى قسمتنا إلى يمين ويسار، وجعلت منا أعداء لبعضنا البعض، وأشعلت البغضاء والكراهية فى الشارع الهادئ.

كانت أياما رخية من الصداقة والمحبة والمودة.

وأتيقظ فجأة من الذكريات وكأنما لطمنى الزمن بعنف وأتلفت

حولى فى عالم اليوم وأقرأ على الجدران أفيشات الأفلام وأتابع بذهول تطور العناوين.. بركان الغضب.. المنحرفون.. المخربون.. الوجه المدمر.. العيون النارية.. صرخة الشيطان.. وكر الأشباح.. قوة الانتقام.. السيف الملعون.. المشاجرة الكبرى.. عصابة العنكبوت.. التحدى الرهيب.. الرغبة الملتهبة.. المرأة والكرباج.. القتلة..

وأفتح الراديو فأسمع صراخ الديسكو وموسيقى نحاسية تصك الأذن وغناء أشبه بالتشنجات.. وفى المسرح لا أرى فى الصفوف الأولى إلا تجار مخدرات وباعة كاوتش وتجار شنطة وسماسرة عملة ولا أرى من الفنون المعروضة إلا ما يرضى مزاج هؤلاء من نكات بذيئة وهزليات هابطة.. ما أسرع ما تطورنا..

فإذا نقلت مؤشر الراديو بين المحطات العربية سمعتها تشتم بعضها البعض،وسمعت قذائف الاتهام بالخيانة يتبادلها الإخوة فى فحش وإسفاف.. ولا أرى جارة إلا وهى فى حرب مع جارتها.

فإذا فتحت الصحيفة طالعتنى أعمدة طويلة عن التلوث والإرهاب وخطف الطائرات وتفجير السيارات الملغومة واندلاع الحروب والمجاعات وأزمة الطاقة وأزمة الغذاء وارتفاع الدولار وهبوط الجنيه والتحريض على الإضراب والترويج العلنى للفتن.. والإشادة بالتخريب.. والحض على الفوضى.

وفى الشارع تدفعنى الأكتاف وأطالع المحجبات والمنقبات والعاريات على مقعد واحد فى أوتوبيس.. وأرى الوجوه هضيمة شاحبة فيها غل وكمد.. وأرى النظرات متوترة والحركات عصبية وأرى الكل يهرول وكأنما ينزل على ظهور الجميع كرباج خفى.. وأخرج من زحام إلى زحام. وأمام الفاترينات أرى طوابير وعيونا جاحظة تلتهم المعروضات فى نهم وشبق.

وفى القاهرة ألف مسجد.. ولكن لا أرى فيها طمأنينة الإيمان التى كنت أراها فى الأربعينات والثلاثينات..

ماذا جرى للدنيا؟

وفى أى زمن نعيش؟

هذا زمان الضنك ياسادة برغم العلم والاختراعات والفديو والتلفزيون والنزول على القمر واختراق الفضاء وتحطيم الذرة وجراحة الليزر وزرع الأجنة والهندسة الوراثية وعجائب الكمبيوتر.. لقد تقدمنا.. كسبنا الكثير هذا صحيح.. لكن ما خسرناه كان أكثر.. خسرنا النبل والإنسانية والمحبة والوداعة والبساطة والشهامة والجمال والأناقة والنظافة.

أين شجاعة أجدادنا الذين كانوا يلتقون وجها لوجه وسيفا لسيف من نذالة وخسة الأحفاد الذين يرسل الواحد منهم للآخر طردا ملغوما لينفجر فى وجهه أو فى وجه السكرتير البرىء الذى يصادف أن يكون أول من يفتح الطرد.

وهذا الجبان الآخر الذى يزرع قنبلة فى طائرة لتنفجر فى الجو وتقتل أطفالا ونساء وشيوخا من جنسيات لا يعرفها وليس بينه وبينهم عداء.. ثم يدعى بعد ذلك أنه بطل وأنه صاحب قضية ثم يجد جبناء آخرين يدافعون عنه فى الصحف ويصفونه بأنه مكافح ومناضل.

فى أى زمان نعيش؟

لقد قرأت بعينى فى الصحف من يكتب ليسمى هزيمة ١٩٦٧ نصرا،وقرأت فى عام ١٩٧٣ من كتب ليسمى العبور والانتصار هزيمة.. وكأنما أصبح قلب الحقائق فصاحة والتزوير بلاغة يتباهى بها صاحبها.

أين زمان الحياء؟

لقد وقعنا نحن الدول الصغيرة النامية فى الشباك العنكبوتية للماكرين الكبار.. وهم قد وضعوا الكلام فى أفواهنا فأصبحنا نتكلم كما يريدون ونقتل من يريدون أن نقتل ونحارب من يريدون أن نحارب ونظن أنفسنا أحرارا ننفذ مشيئتنا وما ننفذ فى الحقيقة إلا مشيئتهم.. ومشيئتهم هى الفساد والإفساد بكل السبل.. وبأيدينا لا بأيديهم.

ونحن نوفر لهم الدم والمال وسوء السمعة فنقوم بقتل أنفسنا بدلا منهم وتمزيق وحدتنا بدلا منهم..

تركوا لنا المهمة القذرة لنؤديها.

ونحن نؤديها بنشاط.. بل نتنافس على تأديتها..

أنا لا أتهم أحدا.. فنحن جميعا متهمون.

نحن صناع هذا الزمن.

والاعتراف بالحقيقة هو الأمل فى إصلاح المسار.

أصلح نفسى وتصلح نفسك ويصلح الكبار أنفسهم ويجد الجبناء أنفسهم معزولين محاصرين محتقرين لا يعبأ بهم أحد ولا يسمع لهم أحد.

وربما كان عزاؤنا أن البلاء شامل والمصيبة عامة.
فهل لندن اليوم هى لندن الثلاثينات.
وهل باريس اليوم هى باريس الثلاثينات.

إن التدهور شمل الجيل الثانى فى أوروبا وإنجلترا وأمريكا.

فلم يخرج هذا الجيل قمما تضاهى بيتهوفن وشوبان وفاجنر وشابلن بل أخرج الخنافس وألفيس بريسلى ومايكل جاكسون وبوى جورج وحفنة من أبطال الكاراتيه، ووصلت السيارات الملغومة إلى قلب الشانزليزيه، وانفجرت القنابل فى مطار هيثرو، وانطلق الرصاص على البابا فى الفاتيكان، وتكررت حوادث الخطف فى روما، ولم يسلم مكان فى أوروبا من الإرهاب والفوضى

والمخدرات ولم تسلم أيدى الكبار الذين يدبرون ويحيكون المؤامرات من أن تحرقها النار.. والمفاعل الذرى الذى يجهزون فيه وقود البلوتونيوم لتحضير القنابل الهيدروچينية للترسانة الروسية.. وصل خطره إلى شواطئ السويد وأطلق سحابة من الإشعاع القاتل ظللت أوروبا بأسرها.

لن يسلم الكبار من النار التى يشعلونها للصغار.
التهديد سوف يشمل الكل.
والضنك سوف يخيم على الكل.
وحينها تغرق السفينة لن ينجو أحد.
الكبار سوف يسبقوننا إلى القاع.
لا غالب ولا مغلوب.
لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم.

ولكن برغم الصورة العامة القاتمة لتداعى الحوادث فإن هناك جزرا صغيرة من الأمل فى البحر المظلم الذى ارتفع فيه الموج.. جزرا من الخير.. ليست دولا لكن أفراد وجماعات وأقليات هنا وهناك فى كل مجتمع.

أقليات نذرت نفسها للخير وللعمل البناء.

أفراد وقفوا حياتهم على القراءة والعلم والتأمل والتدبر والتفكر.

وآخرون وقفوا حياتهم على التجريب فى المعامل والمختبرات والمراصد ومخترعون يبحثون فى حل طلاسم الطاقة.

وزراعيون يبحثون فى استنباط الغذاء من الصحارى ومن قيعان البحار، وأطباء يسهرون لاكتشاف أسرار الصحة والمرض..

وأهل محبة ووداعة ينشرون المحبة بالقدوة وبالسلوكية المثلى وأهل بصيرة يقدمون نماذج عليا من الإيمان والعمل الصالح والحياة البارة.

وأهل صدق لا تفسدهم رشوة ولا تبدلهم غواية.

ومن أجل هؤلاء يحفظ الله أركان الدنيا ويبقى عليها برغم كثرة المفاسد والانحرافات، لأنه من ظهور هؤلاء ومن أصلابهم تخرج الصفوة من الهداة والمصلحين الذين ينتقل بهم التاريخ من حال إلى حال.

وتبقى فى الذهن صورة عجيبة لهذا الزمن العجيب الذى جمع بين أقصى الشر وبين أقصى الخير وبين أقصى العلم وبين أقصى الجهل وبين أقصى الوفرة وبين أقصى المجاعة وبين غاية الحقد والرفض وبين تعدد وسائل الاستمتاع ويسر العيش وسهولة الإشباع وبين قمة المرح وبين حضيض الاكتئاب.

ذلك الزمان الذى تجد فيه النفس فرصها اللانهائية لتنفع وتضر وتلك فى نظرى أكبر ميزاته.. أنه زمان الفرص.

والسعيد من حاول أن يغتنم لنفسه فرصة خير ومناسبة نفع وأن يجد لنفسه موطئ قدم بين الأقليات الذين ذكرناهم.. الأقليات العاملة فى صمت.

ولينسى مؤقتا ماذا يكسب وماذا يخسر.. فإن الأغلبية إلى خسارة.. وأكثرهم خسارة هم الذين يبدون اليوم أكثر وجاهة وأكثر مكسبا.

وسوف يسحب التاريخ بساطه فيمحو آثارهم جميعا ولن يبقى فى قائمة الذكر الحسن إلا أنفع الناس.

هل هم رجال أم عيال ؟

دار الزمان دورته ولم يعد الشيوعى يستطيع أن يقول إنه تقدمى وإن غيره من المذاهب رجعى، ولا عادت الماركسية تستطيع أن تدعى أنها الوعد المأمول بالرخاء لكل الشعوب، فأكثر الدول التى اختارت الماركسية أصبحت أسوأ فاترينة للمذهب.. والواقع فى كل مكان أصبح يقول شيئا آخر غير ما تقوله المنشورات، ومعظم الشعارات التى عشنا على أوهامها فى الخمسينات أصبحت أكاذيب.

ولم تعد التقدمية ولا الرجعية رهنا بمذهب ولا الرخاء رهنا بأيديولوچية وإنما ظهر شىء جديد اسمه التكنولوچيا والاندفاع الصناعى، وعلوم جديدة مثل الهندسة الوراثية، وعلوم الفضاء والتخليق الكيماوى للمواد والكومبيوتر، وأصبح بالإمكان أن تحل أزمة الغذاء وأزمة الطاقة وأزمة الإنتاج داخل معمل ودونما حاجة إلى ثورة وشعارات وصراع طبقى وحكومات سلطوية قمعية تسجن الناس وتقتلهم ثم لا تفعل شيئا بعد ذلك ولا تقدم رخاء بل يندفع الرفاق الثوريون ليقتل بعضهم بعضا على القمة بحجة الولاء للمذهب وبحجة خدمة الشعب.. ولا مذهب هناك سوى حقد يأكل بعضه بعضا ونزوات للتحكم والتسلط يكون الشعب دائما أول ضحاياها.

ولقد ادعت الشيوعية منذ ميلادها أنها ستقوم بهذا الاندفاع العلمي والصناعي والتكنولوچي ولكن خطوتها كانت قصيرة ونفسها كان قصيرا لأنها اندفعت من نقطة صراع ومن بداية قهرية قمعية فما كادت تتقدم خطوات حتى توقفت، وما لبثت اليابان الرأسمالية وأمريكا الرأسمالية بل وحتى ألمانيا الغربية المهزومة فى الحرب أن سبقتها وتقدمت عليها.

وتحولت روسيا إلى الطرف الرجعى الذى يستورد الخبرة والتكنولوچيا من بلاد الخصوم.

واعترفت الصين بأخطاء ماو وفتحت أبوابها لأمريكا.

أما البلاد الأصغر فكان حظها أسوأ وإعلانها عن فشلها أبلغ.

ثار العمال فى بولندة وخلعوا صورة لينين ووضعوا مكانها صورة البابا، وتدهور الاقتصاد البولندى وأصبح يعيش على صدقات الأعداء، واشتملت المجاعة على جميع أرجاء أثيوبيا، ورأينا هونيكر فى ألمانيا الشرقية يمد يده إلى ألمانيا الغربية يطلب المعونة أما المجر وتشيكوسلوفاكيا مهد صناعة الصلب فقد وقفت «محلك سر» منذ أن داستها الدبابات السوفيتية أيام دوبشك.

أما عدن فقد رجعت إلى الوراء إلى عصر الغابة إلى قبلية بدائية مخزية ورفاق يقتل بعضهم بعضا ويفجرون بلادهم بالقنابل والصواريخ (أحداث يناير ١٩٨٦).

وظهر فى معسكر اليسار بلاد مثل ليبيا تشتغل بتصدير الرعب إلى الدول العربية وإلى الدول الأوروبية وتقتل الأبرياء تحت شعارات ثورية زائفة.

وإذا كان الواقع يعلمنا شيئا فهو أن نكف عن هذا الهراء الأيديولوچى ونضع أيدينا على المفتاح الوحيد للتقدم وهو التكنولوچيا والعلم والمنهج التجريبى وندرك تماما أن هذه الأشياء لا وطن لها ولا مذهب فلا توجد تكنولوچيا يسارية وتكنولوچيا يمينية ولا علم روسى ولا علم أمريكى.. فالماء يغلى فى درجة مائة فى كل البلاد، وقوانين الجاذبية صالحة فى كل وطن.

والتربة الضرورية لنمو العلم هى الاستقرار والأمن والديمقراطية والصلح الاجتماعى وليس الصراع الطبقى والتآمر والشجار.

إذا تحول الخمسون مليونا من المواطنين فى مصر إلى خمسين مليون عقل يفكر ويعمل كان هذا التحول هو التقدمية.

العلم والتكنولوچيا والإنتاج يصنع الرخاء ثم يأتى الرخاء بدوره فيدفع العلم ويدعم التجربة فالتجارب اليوم مكلفة (المكوك تشالنجر ثمنه فوق الألف مليون دولار).

وفوق كل شىء.. العقل البشرى.. الجوهرة الحقيقية والطاقة المبدعة الخلاقة التى تصنع بانطلاقها كل شىء.

إن تشغيل العقل وإطلاقه من قيوده وتوفير الظروف لعمله هو المفتاح الحقيقى لدخول هذا العصر وللجلوس على مائدة الأقوياء.

فهل نبدأ؟ أم سوف نعود فنسمع فقهاء الماركسية يملئون الصفحات وينشئون المجلات ويعقدون الندوات ويجروننا جرا إلى معارك طواحين الهواء بين اليمين واليسار وإلى مهاوى التخلف التى لا يريدون منها خروجا.

إن الواقع العربى انحدر إلى ما تحت الصراعات المذهبية فأصبح نهبا للصراعات الشخصية وما عادت المذاهب المعلنة إلا ذرائع.. ولأن الماركسية حكم سلطوى قمعى وشمولى فهو يعطى أسهل مبرر للتسلط.. ولهذا كان الاندفاع اليسارى والمزايدة عليه هو القاعدة بين كل القوى العربية.. ليس لأنه الأفضل للشعوب البائسة المطحونة ولكن لأنه الأفضل للحكام الذين يحلمون بالتسلط والانفراد بالرأى وسحق خصومهم.. كن ماركسيا تصبح لديك الفرصة لتقتل أكثر.. ومن هنا كان هذا الاختيار البائس لهذه القيادات الشبحية المتخلفة والمشهد التراجيدى لهذه الساحة التى تتناثر فيها جثث القتلى.

ولن نخرج من هذا التخبط إلا إذا ولد الوعى من هذا المخاض المؤلم بأننا نسير فى طرق خاطئة ونضيع فى حوار مسدودة ونرفع شعارات كاذبة ونجرى وراء مذاهب مضللة.

هل يمكن للإنسان المصرى أن يضيف شيئا لهذه الصيحة المدوية التى هى عنوان العصر.. صيحة العلم والتكنولوچيا والكومبيوتر والفضاء.

نعم أعتقد أننا نستطيع أن نضيف الخبرة التى استقيناها من سبعة آلاف سنة من الحضارة.. نضيف إلى العلم بعدا ثانيا هو الأخلاق الإيمانية الكريمة ونضيف إليه نقاء التوحيد.

ونستطيع أن نقول إن هذا هو البعد المفقود.. وأن العلم ينطلق إلى قوة وحشية إذا ترك بدون ضوابط خلقية.. وأنه بدون التوظيف الخلقى لهذه القوى العلمية فى الخير يمكن أن تتحول إلى قوى مدمرة تدمر أول ماتدمر أصحابها الذين أطلقوها من عقالها.. وأن العلم والإيمان هما وجها الإنسان الكامل الذى لا يمكن أن يكون كاملا بدونهما.

ولكن يجب ألا يأخذنا الغرور فنظن أننا جلسنا على كرسى الفتوى فنحن للأسف لم نبلغ بعد شأوا يذكر لا فى العلم ولا فى الإيمان الذى ندعو إليه.. وأغلب التدين الذى نراه من حولنا شكلى ولهذا ما يلبث أن يتحول إلى جدل ثم شجار ثم تناحر ثم يفعل بأصحابه ما فعل اليسار بأصحابه.. لأنه ليس تدينا حقيقيا بل زخرفا شكليا وشعارات جوفاء.

وتلك ظواهر تخلف وعلامات طفولة حضارية (المنطقة العربية

كلها حديثة عهد بالاستقلال) ولهذا كان المسرح العربى ساحة أكثر من يلعب فيها عيال سواء الذين يرفعون منهم شعارات دينية أو شعارات ماركسية.. النضج غائب والأصالة مفتقدة.. وأهل الكمال أغلقوا عليهم أبوابهم وأصبحوا لا يتكلمون إلا همسا.

نحن متخلفون.. هذه حقيقة.. ويجب أن نعلم أننا نبدأ من الصفر.. وأننا برغم أن عندنا الحل وعندنا المفتاح السحرى للمشاكل فإننا لا ندرك قيمته.. بل أكثر من هذا نسىء استعماله.

وإلى أن يولد الوعى من المخاض الأليم وإلى أن يولد الجيل الجديد من الإنسان الكامل إنسان العلم والإيمان.. الإنسان القدوة.. المهدى الذى يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا. فإن الساحة سوف تظل مسرحا للثورة والقتل والانقلابات المتكررة بلا جدوى.

وانتظارا لهذا اليوم أقول لكل واحد.. ابدأ بنفسك.. حاول أن تصلح ذاتك بدلا من أن تجلس على كرسى الفتاوى وتتهم الآخرين.

من هو بوذا ؟

جوتاما بوذا.. المعلم والحكيم والفيلسوف، الذى ظهر فى سيلان منذ أكثر من ألفى عام ليهدى الناس إلى سبل السعادة ويدلهم على طريق الخير تحول الآن إلى أسطورة ولغز.

ولو سألت الآن أحد اليابانيين: ما هو بوذا، لوجدت أجوبة بعدد من تسألهم.. فالبوذا هو أنا.. والبوذا هو أنت.. والبوذا هو الوردة.. والبوذا هو هذه العصا.. والبوذا هو الحقيقة، والبوذا هو السر.. والبوذا هو شيئية أى شىء، والبوذا هو جوهرك.. والبوذا هو العدم.. والبوذا هو الدائرة الفارغة.. والبوذا هو الصفر.. والبوذا هو الذى لا تعبر عنه الكلمة، والبوذا هو الذى ليس كمثله شىء.

ويقولون لك ادخل فى «الزن» ZEN وأنت تعرف، فإذا سألتهم: وما هو الدخول فى «الزن»؟ قالوا: فقط اجلس جلسة تأمل هادئة، وأغلق عينيك، وأسكت صوت خواطرك ورغباتك ثم تخطى نفسك واسمك وعلمك وعملك وحظك وجاهك وكل متعلقات هذه النفس وأطماعها.. ثم تجاوز هذا كله فتصل إلى الراحة وإلى السكون المطلق وإلى الفراغ والصفر، فذلك هو البوذا، وذلك هو حقيقة كل شىء فأنت الآن تلامس جوهر الوجود وأنت تلامس حقيقة جميع الموجودات فتلك حقيقة الوردة

والثمرة والميكروب والعصا والكلب والشجرة والنجم وشكسبير.. وأنت الآن قد أصبحت ذلك الفراغ لملىء، فأنت الآن كل هؤلاء.. وهم جميعا أنت.. أنت الصفر واللانهاية.. وأنت الآن أدركت وعرفت فالزم، فلا بوذا هناك وإنما نفسك فى إطلاقها وتجردها وشمولها محيطة متحدة متوحدة مع الكل.

ولهذا يقول العارف منهم: هناك بوذا لمن لا يعرف بوذا.. أما الذى يعرف فليس عنده بوذا.

أنت تحتاج للبوذا حتى تنتزع شوكة نفسك، فإذا انتزعتها فقد انتزعت البوذا معها.

ويقول لك العارف:

قبل الدخول فى «الزن» تبدو لك الوردة وردة، والعصا، عصا، فإذا دخلت فى «الزن» لا تعود الوردة، وردة، ولا العصا، عصا.. فإذا خرجت من «الزن» عادت الوردة، وردة وعادت العصا، عصا.

وحالة الصفر، أو حالة «الفناء» ويسمونها «النرفانا» هى منتهى أمل البوذى.. وهى غاية السعادة والسكون الداخلى الذى لا تزلزله الزلازل ولا تحركه النوازل.

فإذا قلت له: كيف يكون الصفر هو الحقيقة، وكيف يكون الفناء هو الغاية التى يسعى إليها العارف؟! قال لك تخيل الزمن..

تخيل عمرك الذى تعيشه.. إنه ماض انتهى، ومستقبل لم يأت بعد.. وبينهما نقطة افتراضية بين امتدادين.. لكن هذه النقطة أو هذا الصفر الحسابى هو كل الامتلاء الذى نسميه الحاضر أو الواقع الذى نقتتل عليه والذى ما يلبث أن ينصرم ويزول ويصبح شبحا خاويا فى برواز قديم اسمه الماضى.. وكل بكائنا وكل همنا واهتمامنا مشغول بهذا الصفر.. بهذه الدائرة الفارغة.. وإذا أدركنا هذا فسوف نستريح، وينتهى عذابنا وينتهى بكاؤنا وتجف دموعنا.

إذا أدركت أن منتهى الامتلاء هو منتهى الخواء فأنت البوذى الواصل وقد عرفت فالزم.

ولكى يصدمك ويوقظك من غواشي الحس.. وغرور العقل الذى يحجبك فإن البوذى العارف يفاجئك بأمثال هذه الأسئلة المحيرة.

- ما صوت يد واحدة تصفق؟
- ما شكل وجهك قبل أن تولد؟

ما حقيقة البوذا فى كلب؟

ويقرعك على ظهرك بمقرعة مثلما يقرع الطبيب المولود عند ولادته لكى يأخذ أول شهيق ويدخل الهواء رئتيه، فهكذا يفعل بك لتصحو وتولد من جديد.

فإذا انفجر عقلك من التفكير دون جدوى ودون أن تجد جوابا شافيا على أسئلته قال لك.. ادخل فى «الزن».. تجاوز عقلك ونفسك وحواسك واخرج من هذه المحارة التى تسجنك تصل إلى الحقيقة.. إن كلاما يخرج من شفتين باليتين محدودتين لن يكون إلا هراء.. فالحقيقة لا يمكن التعبير عنها بكلام ولا بحروف.. إنها إشراقة، واستنارة باطنية تضىء وجودك كله.

وطائفة «الزن» تعود فى أصلها إلى «كاشابا».

و «كاشابا».. هو أحد تلاميذ بوذا.

وتحكى القصة أن جوتاما بوذا وقف ليلقى آخر دروسه على تلاميذه.. ولكنه لم يتكلم وظل صامتا ثم اكتفى بأن يقدم وردة.. وتساءل التلاميذ عن المعنى الذى قصده بوذا ما عدا كاشابا فإنه ابتسم.. فقال بوذا: «هو ذا أحدكم استطاع أن يفهم ما لا يمكن التعبير عنه بكلام.. وهو ذا يقوم من بعدى فيعلمكم».

وهكذا بدأت طائفة «الزن» وطريقها الصمت والسكون والتأمل.

وليس لهذه الطريقة كتاب ولا تعاليم ولا تسابيح وتكاد تكون ضد النطق بأنواعه، وتكاد تكون ثورة على ابتذال الحقيقة بالكلمات.

ولكن البوذية الأولى التى جاء بها بوذا منذ أكثر من ألفى عام كانت أبسط من ذلك بكثير.

إن جوتاما بوذا الذى كان الابن المدلل لعائلة ارستقراطية.. والذى ضاقت نفسه بالترف الفارغ، فترك قصر أبويه، ولبس الخرقة وهام فى الغابات بحثا عن الحقيقة.. قد ظل يسعى فى الأرض وقد طوى بطنه على الجوع.

وتحت شجرة وقد بلغ منه الصيام كل مبلغ، أشرقت عليه الحقيقة، وأدرك أن طريق السعادة الحق هو فى قمع النفس، وكبح رغائبها.. فإذا سكتت الرغبة وخرست الشهوة وانتهى الطلب، سكت اللهاث المجنون، وانتهى الألم، وانفتحت فى القلب أبواب الحكمة.

النفس الراغبة الشهوانية هى الحجاب، وهى سبب التعاسة والألم، فإذا تجاوزتها وتخطيتها تحررت وبلغت غاية الراحة والسعادة.

تلك كانت تعاليم بوذا.. وذلك كان طريق الفضيلة بالنسبة إليه.

ولم يبلغنا فى الآثار الباقية عن بوذا أنه تكلم عن إله أو آخرة أو حساب أو روح أو غيب، ومع ذلك فهو فى أكثر أقواله يتكلم عن «الواحد».

فماذا كان بوذا يعنى بالواحد؟!

بعد أن انطوت آلاف السنين على تلك الأقوال ودخل عليها كل ما يدخل على الأقوال والسير من تحريف وإضافة وتغيير، لا يتبقى لنا إلا ما يتداوله البوذيون من تراث.

وهم يقولون فى هذا التراث إن بوذا لم يكن يعتقد فى ثنائية خالق ومخلوق.. وإنما اعتقد دائما فى واحدية تقول «بأن الخالق هو عين المخلوق كلاهما واحد».

الكون هو عين المكون، والكل واحد.

الله هو الكل، هو مجموع السموات والأرضين وما عليها وما بينها.

يقول ذلك الواحد فى أبيات غريبة من الشعر:

«إذا ظن القاتل أنه قاتل
وظن القتيل أنه قتيل
فإنهما لا يدريان ما خفى من أساليبى
حيث أكون أنا الصدر لمن يموت
وحيث أكون أنا الذراع لمن يقتل
وحيث أكون أنا القاتل والقتيل والسكين
وحيث أكون كل شىء حتى الموت نفسه..»

وتلك هى وحدة الوجود الهندية التى تجعل من الله ومخلوقاته شيئا واحدا.

ولم يكن هذا كل ما جرى على أقوال الحكيم بوذا، بل إن البوذية انقسمت فى اليابان وحدها إلى ثلاث عشرة شعبة.

ولم تكن «الزن» إلا واحدة من تلك الشعب. و «الشنتو».. هى شعبة أخرى. و «للشنتو» فى عاصمة اليابان القديمة ألف وخمسمائة معبد من مجموع أربعة آلاف وخمسمائة معبد بوذى.

وطائفة «الشنتو» يؤمنون بالروح، ويقدمون لها القرابين ويطلبون منها العون والهداية.. وللروح كهنة وخدام.

وفى كل معبد كاهن خاص يلجأ إليه المواطنون ليقرأ لهم طالعهم.

ولا نفهم ما هو الروح المقصود، وكيف ومتى خرج هذا الروح من عباءة بوذا.

وطائفة ثالثة.. تؤمن بالآخرة والبعث، وبعالم من الفردوس، ينتهى إليه الناس، كل الناس، بعد أن يتطهروا وتكتمل نفوسهم.. ويؤمنون برب واحد، هو «اميدا بودا».. هو الله النور والحياة.. وهى طائفة حديثة خرجت إلى النور منذ ثمانمائة سنة.

وسبيل النجاة والهداية لكل إنسان فى هذه الطائفة، هو أن

يتوكل على «أميدا بودا» ويطلب منه العون والقوة.

ويقولون إن «أميدا بودا» هو نفسه بوذا بعد أن تخطى مرتبة البشرية ثم عاد فتجاوز مرتبة الكينونة، وأصبح فى الإطلاق والتجريد لا سبيل إلى الوصول إليه.

ولكنه من فرط حبه أرسل رحمته المهداة «بودا ساتفا».. ليكون الواسطة بينه وبين كل المخلوقات ليأخذ بيدها جميعا إلى مراقى الفردوس الأعلى.

يقول مستر «سوجيتا» وهو رجل أعمال يابانى: إن طريقة «الزن» تحتاج إلى وقت ولا أحد يفهمها، ولاتلائم هذا العصر.. ولكن ديانة «الأميدا بودا» يفهمها الكل.

وفى اليابان عشرون مليونا من أتباع «الأميدا بودا» ويسمون مذهبهم طريق الفردوس Pure Land Sect وطائفة رابعة هى طائفة «سوكا جاكاى».. أو البوذية الجديدة.. وهى طائفة ترفض الغيبيات وترفض التفلسف وترفض الغموض.. ومعابدها عمارات مبنية على أحدث الطرز العصرية وتعمل بالأزرار والإلكترونيات. ودينها التخلق بمكارم الأخلاق.. مجرد مكارم الأخلاق، ولا شىء سوى ذلك.

وطوائف أخرى.. وأخرى..

وأفكار بلا عدد..

وطرائق تتشعب إلى الهدف، وإلى نقيضه.

وأسأل نفسي: ترى لو بعث بوذا حيا وذهب إلى اليابان.. هل يتعرف على البوذا هناك.. وهل يعرف كل منهما الآخر؟!

وهل نتعرف نحن أهل الأديان السماوية على ملامح مشتركة بيننا وبين هؤلاء.

وهل يقف كل الأنبياء على أرض واحدة، برغم تقادم العهد، وكثرة التحريف وانقسام الأديان إلى عشرات الملل والنحل؟!.

نعم.. برغم كل ما طرأ على الوحي الذى تلقاه الأنبياء من تحريف، ورغم الفتن والانقسامات، فإن الدارس للأديان دراسة مقارنة يشعر بالأرض المشتركة التي يقف عليها كل الأنبياء.

إنهم جميعا اتفقوا على الحض على مكارم الأخلاق، والأمر بالمعروف، وقمع الشهوات.. وتكاد تكون ألواح الوصايا واحدة فى الجميع.

وكلهم تكلموا عن الواحد.. وإنما اختلفت الروايات عن هذا الواحد بسبب تقادم العهد والتحريف.

وكلهم اتفقوا على أن جهاد النفس هو السبيل الموصل إلى المعرفة والاستنارة، وسكينة القلب.

وكلهم قالوا بالبعث وحياة الآخرة، حتى ديانات الفراعنة والديانات الوثنية.

وكلهم سلكوا بالتصوف على نفس الدرب.. بالصوم.. والصمت.. والخلوة.. والتأمل.. ورياضة النفس على الصبر والحلم وكظم الغيظ وتحمل المكاره والزهد فى الخسائس.

وكلهم كانوا طلاب علم وطلاب حق وطلاب عدالة.

وبرغم ما فعل الزمان بالتواريخ والسير والكتب والأقوال.. فإن الأصابع جميعا كانت تبدو أنها تشير إلى شيء واحد.. إشارة مرتعشة أحيانا، وإشارة ثابتة أحيانا.. ولكن دائما إلى نفس الاتجاه.

وكأن الكل يقول: هو..
أحيانا بالإشارة..
وأحيانا بالعبارة..

وأحيانا يختلط الـ «هو» بالـ «أنا».

وأحيانا يتحد الاثنان فى وجدان صوفى محموم فيصير النبى فى نظر أتباعه إلها، والمخلوق خالقا.. وتلك خطايا المغالاة التى تؤدى بأصحابها إلى الكفر.

ولكن أهـل البصائـر سيرون نـور البـدر، بـرغم السحب وبرغم غواشى التحريف، وبرغم الاختلاف.

ولهذا جعل الله القرآن كتابا مهيمنا على جميع الكتب لأنـه

وحده المحفوظ برحمته فهو وحده المرجع عند الاختلاف وبه تمت الكلمة.

﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ (٨٢ - النساء).

ألم يقل الله لنبيه: ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ (٧٨ - غافر).

فما أكثر الرسل عبر التاريخ مما نعرف ومما لا نعرف ولكن ما أكثر ماتعرضت كلماتهم للتغيير والتحريف.. وصدق الله العظيم.

الخروج من مستنقع فرويد

النفس فى تصور فرويد.. غرائز تطلب الإشباع فى طرف ثم بيئة مادية هى مجال لهذه النفس ومحل لفعلها وانفعالها فى طرف آخر.. ثم لا شىء وراء ذلك.. لا روح ولا إله ولا غيب ولا شىء من وراء هذه الدنيا المادية الكثيفة الغليظة.

الغرائز واللاشعور والطاقة الجنسية هى الإله الحاكم والكل فى خدمته.

والخمس السنوات الأولى فى حياة الطفل هى التى تحدد سلوكيته ونفسيته إلى ما تبقى من سنوات عمره.

وما نفعله وما نفكر فيه وما نحلم به يتم فى جبرية وحتمية تبعا لما ينقشه فينا اللاشعور والعقل الباطن.

فالإنسان مدفوع دائما بقوى لا معقولة وملقى به نحو أفعال قهرية لا تبصر فيها ولا روية.. وهو مغلوب على أمرة لا حيلة له ولا مخرج.. وكل ما يملكه العقل هو أن يحاول تبرير هذه الرغبات البهيمية والبحث عن وسائل مقبولة لإشباعها أو التسامى بها ليزاولها بصورة أجمل أو الانتكاس بها إلى حالات هستيرية تنفس عن غليانها.

والعقل بهذا المعنى خادم للبهيمية ساقط إلى درك اللامعقول

ومكرس لإشباع نزواته.

والإحساس بالذنب والتوبة والندم هى بهذا المعنى عقد نفسية وأمراض يلزم التخلص منها.. وقد استخرج فرويد وأتباعه تلك النظريات من دفتر مرضى الهستيريا والنورستانيا والملاخوليا ثم عمموها على الأصحاء والأسوياء.. وجعلوا منها قانونا لا يتخلف.

وما فعله علماء النفس المتأخرون بعد فرويد كان أسوأ.. لقد أخرجوا الإنسان من بيئته الطبيعية وأدخلوه المعمل فيما يعرف الآن بعلم النفس التجريبى.

وبهذا كذبوا على الناس كذبة أخرى لأن النفس بطبيعتها ذات كلية ولا يمكن تحويلها إلى موضوع أو تشريحها تحت المجهر لأنها بتشريحها تصبح شيئا آخر غير النفس الحية المطلوب فهمها.. والنفس بطبيعتها تتفلت وتستخفى وتستعصى على التجريب.. لأن النفس كل لا يقبل التجزئة وواحد لا يقبل القسمة.

وعلم النفس الحالى هو علم نفس مرضى لأنه يركز على العيوب والأمراض والآفات والعلل ويفتش فى الانحرافات والتشوهات ولا يقدم لنا شيئا إيجابيا عن النفس السوية الصحيحة.

وأى علم نفس هذا الذى يرى أن إشباع الشهوات هو المنبع الوحيد للسلوك وأن عقدة أوديب (عشق الولد لأمه) وعقدة الكترا (عشق البنت لأبيها) هما المرجع الرئيسى الذى يفسر جميع التصرفات.. وأن التوبة والندم والصبر على المكاره وقمع الشهوات أمراض ومظاهر للكبت.

وما قدمته هذه المدرسة كأساليب للعلاج كانت كلها أنواعا من المسكنات.. العلاج بالتنويم المغنطيسى.. العلاج بالإيحاء.. العلاج بالإفشاء.. العلاج بالتنفيس.. العلاج باللعب.. العلاج بالفن.. العلاج بالاستغراق فى عمل آلى.. كانت كلها أشبه بعلاج السرطان بالمراهم والمهدئات.. لأنها لم تفكر فى أن تغير من النفس شيئا.. وإنما قبلت وجود الدمل النفسى على حاله.. ثم قالت للمريض.. اصرخ أو غن أو ارقص لتنفس عن آلامك.

أما الموقف الإسلامى من النفس وأمراضها فكان مختلفا بالكلية فهو يبدأ بالإنسان من موقف حرية فلا جبرية ولا حتمية فى الإسلام والنفس خلقها الله حرة تختار خيرها وشرها والله يقول للشيطان:

﴿عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾.

حتى الشيطان لا يستطيع أن يقهر النفس على اختيار لا ترضاه.

والمرض النفسى ليس قدرا.. والسلوكية الشاذة ليست قضاء محتوما.. وإنما النفس قابلة للإصلاح والتبديل والتغيير.. والمنهج الإسلامى فى إصلاح النفس يفعل هذا على مراحل.. أولا يبدأ بتخلية النفس من عاداتها المذمومة (وذلك هو تفريغ الإناء مما فيه بالاعتراف بالذنوب والتسليم بالعيوب وإخراجها إلى النور) والمرحلة الثانية هى التوبة وقطع الصلة بالماضى والندم على مافات ومراقبة النفس فيما يستجد من أمور ومحاسبتها على الفعل والخاطر والمرحلة الثالثة هى مجاهدة الميول النفسية المريضة ومحاربتها بأضدادها، وذلك برياضة النفس الشحيحة على الإنفاق والنفس الشهوانية على التعفف، والنفس الأنانية على الإيثار والبذل، والنفس المتكبرة على التواضع، والنفس المختالة العاشقة لنفسها على الانكسار ورؤية العيوب والنقص فيها.. ولا تنجح تلك المجاهدة دون طلب المدد من الله ودون الصلاة والخشوع والخضوع والفناء فى محبة الله ركوعا وسجودا فى توحيد كامل وذلك بالاسترسال مع الله والانسياب مع الفطرة وإرادة العبد ما يريده الله وكراهيته لما يكرهه.. وهنا تحدث المعجزة.. فيتبدل القلق سكينة والفزع أمنا والنواقص النفسية كمالات.

وذروة العلاج النفسى فى الإسلام هى «الذكر» ذكر الله بالقلب واللسان والجوارح والسلوك والعمل واستشعار الحضرة الإلهية على الدوام وطول الوقت وفى كل قول وفعل.

وبالذكر تعود الصلة المقطوعة بين العبد والرب وترتبط النفس بمنبعها.. وتأخذ من أصلها..

﴿ادعونى أستجب لكم..﴾ (٦٠ - غافر).
﴿فاذكرونى أذكركم..﴾ (١٥٢ - البقرة).

فيعود النور ليغمر ظلام النفس.. ويحل العمار محل الخراب والسكينة مكان القلق.

وينظر علم النفس الحديث إلى النسيان باعتباره عرضا ينتج من عدم الاهتمام أو فرط الاهتمام أو كون الموضوع المطلوب تذكره مؤلما أو بسبب تقادم العهد أو بسبب كبت الخبرة المنسية فى اللاشعور.. والطبيب النفسى يحاول أن يصل إلى هذه الخبرة المنسية بالتحليل أو بالتنويم المغنطيسى أو بملاحظة المريض أثناء تداعى خواطره.

والدين لا ينكر هذه الأسباب ولكنه ينظر نظرة أبعد وأشمل إلى ما وراء تلك الأسباب ويرى النفس فى منظور أعمق هو علاقتها بالله.. فمن كان قريبا من ربه ذاكرا له على الدوام كانت قدراته دائما مكتملة وحاضرة وجاهزة لا ينسى شيئا ولا يغيب عن باله شيء لأنه فى دائرة النور.. أما البعد عن الله (باتباع الشهوات والإغراق فى المخالفات) فيدخل صاحبه فى دائرة الظلمة ويجعله من أهل الغفلة ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ وما الأمراض النفسية إلا حالات الغربة والمعاناة التى تعانيها النفس.

لبعدها عن الله وانقطاعها عن مدده.

والفرق بين نظرة علم النفس ونظرة الدين هو افتقاد علم النفس إلى الشمول والنظرة الكلية وسجنه لنفسه داخل إطار الخبرة المادية واللذة الحسية.. وبهذه النظرة المحدودة ينظر علم النفس إلى الوسواس والخاطر فيرى أنه نفث اللاشعور وأنه حديث النفس إلى نفسها (العقل الباطن والعقل الواعى) ولا يتصور أن تلك النفس يمكن أن تكون لها حياة فى محيط آخر خفى وغيبى وأنها يمكن أن تكون محلا لحديث الملائكة ووسوسة الشياطين أو مخاطبة الرب جل جلاله.

وبهذا المنظار ينظر علم النفس إلى العذاب النفسى فلا يكاد يخرجه من إطار الحرمان من اللذات المادية.. ولا يتصور أن العذاب الدنيوى يمكن أن يكون ابتلاء وامتحانا من الخالق الذى خلق.. كما يفعل الحداد بالحديد حينما يدخله النار ثم يلقى به فى الماء البارد ليزداد صلابة.. أو كما يصهر الصائغ معادنه ليفرز ما فيها من ذهب عما فيها من خبث وشوائب.

ويظل علم النفس سجينا لهذه المحدودية وهذه الرؤية المادية الحسية بشكل ينتهى به إلى الخطأ فى كل أحكامه.. فهو مثل الأعمى الذى اكتفى بأن يمسك الفيل من ذيله ثم راح يصور لنفسه أن هذا الذيل هو الفيل.

ولهذا ينظر علم النفس إلى العمل فى نطاق الفعل والحافز دون أن يتعب نفسه فى استقصاء موضوع الإخلاص والنية.. ودون أن يتخطى هدف الفعل الظاهر ويسأل نفسه ماذا فى نية صاحبه.. هل هى الشهرة عند الناس أو تحصيل المال أو الجاه أو السلطة.. أم هو يعمل خالصا لوجه الله.

والفرق كبير بين العملين.

والفصل بين العمل والنية هو فصل للشىء عن منبعه.

والأخلاق بالمنظور الدنيوى «براجماتية» وهى مجرد مصالح ومنافع.

ولا يمكن فهم الأخلاق إلا بربطها بنبعها الحقيقى وهو الدين ولم تأتنا الوصايا العشر عن طريق علماء النفس وإنما عن طريق الأنبياء.

والله بحكم أسمائه الحسنى «الرحيم والكريم والرءوف والودود والحليم».. هو الذى يتجلى بهذه الأخلاق على كل من يستحقها فهو المتجلى بالرحمة على الرحيم وبالرأفة على الرءوف وبالكرم على الكريم وبالحلم على الحليم.. كما تعطى الشمس النور والدفء لكل من يتعرض لها.

ويتوسع فرويد توسعا معيبا فى حكاية الجنس والطاقة الجنسية واللذة الجنسية ويتصور أن الرضيع يمتص حلمة ثدى أمه بلذة جنسية (وهو تخريف فالرضيع لم يباشر هذه اللذة بعد بحكم تخلف

جميع أجهزته.. وهو بالتالى غير قادر على تذوق هذه اللذة) كما يتصور أن الصبى يحبس البراز فى شرجه بلذة جنسية (وهو يستبدل هذه اللذة حينما يكبر بهوايات جمع الأشياء مثل جمع طوابع البريد).

كما يتصور كل ما هو مستدير فى الحلم رمزا لعضو المرأة (مثل الكهف والدائرة والعلبة والحلقة والخاتم) وبالمثل كل ما هو مستطيل رمزا لقضيب الرجل (مثل العصا والثعبان والمئذنة والبرج والسيف والمظلة) وكل حركة فى الحلم هى رمز للعملية الجنسية (كالجرى والتسلق والسباحة وركوب الدراجة).

ثم هو يدمج جميع أنواع الحب حتى حب الوالدين (فى كلامه عن عقدة أوديب والكترا) وحب النفس (النرجسية) وحب الله (الآب السماوى الذى نكفر بعبادتنا له عن كراهيتنا لأبينا الأرضى) فيدخل كل هذه الألوان من الحب فى الدائرة الجنسية المفرغة وكأنها لعنة تمازج كل فعل وتلوث كل شعور.. فلا براءة فى أى شىء.. ولا طهارة فى أى خاطر.

ولهذا يختلف الدين عن علم النفس فى علاج الأمراض النفسية فيقف علم النفس عند حدود التعبير والتنفيس عن هذه اللعنة بالصراخ أو بالرقص أو باللعب أو بالحب أو بالجنس أو بالفن أو بالعمل بينما يقول الدين بإمكانية التغيير والتبديل والخروج من ظلمة البهيمية إلى الأنوار الروحية والإشراقات

الإلهية وذلك بالمجاهدة والرياضة وقمع الرغبات بأضدادها حتى نصل إلى الوسط العدل وهو صراط الحكمة.

ولهذا ينصح فرويد بشرعة الغابة.

كل وإلا فأنت مأكول.

ونقول نحن:

﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ (٨٥ - الحجر).

﴿فاعفوا واصفحوا﴾ (١٠٩ - البقرة).

﴿وإن تعفوا أقرب للتقوى﴾ (٢٣٧ - البقرة).

وهو يرى أن الطيبة تخاذل وسلبية ونحن نراها قوة وإيجابية.

وهو يختار من الأعمال ما يساعد على التنفيس والتعبير ونحن نشترط الأعمال الصالحة وهو يرى أن ماضى الطفولة حاكم على كل إنسان وموجه لأفعاله ونحن لا نقول بحاكم إلا الله ونقول إننا بفضل الله يمكن أن نخرج من أى حكم ونتخلص من أى حكومة.

وهو يقول بفطرة عدوانية وبغريزة التحطيم والهدم وغريزة الموت كدوافع رئيسية ونحن نقول إن الإنسان فطر حرا مختارا بين النوازع السالبة والموجبة يختار ما يشاء منذ البداية.

﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ (٢٩ - الكهف).

﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾ (٢٥٦ - البقرة).

﴿وهديناه النجدين﴾ (١٠ - البلد).

وسبب هذا التخبط الفرويدى هو الإصرار منذ البداية على الرؤية المادية وعلى فهم الإنسان فهما آليا حيوانيا حسيا.

وهو عين ما فعله قرينه كارل ماركس حينما تصور التاريخ عربة تحركها المصالح المادية وحدها وأن حركة التاريخ هى دائما ثمرة الصراع بين طمع الأغنياء وحقد الفقراء إلى آخر ما حكيناه فى الكلام عن الصراع الطبقى.

لقد بدأ كلا الرجلين من نقطة الكفر التام بكل شىء فيما عدا ما تباشره الحواس من متاع حاضر وما تراه العين من دنيا شاخصة.

وكان هذا الأفق المحدود والإصرار عليه هو الذى أدى بالاثنين إلى اعتساف الفروض والنتائج والتخريجات.. وهو الذى انتهى بالاثنين إلى تلفيق ما قالاه عن النفس وعن التاريخ.

ولا يرى فرويد من الأحلام إلا هذا الجانب الجنسى الحسى الشهوانى.. فالأحلام كلها إشباع لرغبات مكبوتة وهى تحرس النوم بهذا الإشباع المتجدد وتريح النفس من أشواقها المستعرة وفرويد وأتباعه لا يرون إلا نوعا واحدا من الأحلام.. هى ما يسميه القرآن.. أضغاث الأحلام ولا يرون إلا جانبا واحدا من النفس.. هى النفس الأمارة.

والقرآن يعلمنا أن هناك نوعا آخر من الأحلام هو الرؤى التى تأتى إلى النفس من خارجها وتكون حديثا من الله أو من الملائكة المكلفين إلى تلك النفس.. ومثل ذلك الرؤى الصادقة التى تتحقق بحذافيرها.. ولا مكان لهذه الرؤى عند فرويد،ونظريته تعجز تماما عن تفسيرها.. مع أنها خبرة عادية عاشها الكثيرون.

وينكر فرويد كما ينكر ماركس أمثال هذه الرؤى لسبب بسيط.. أن رؤية المستقبل قبل حدوثه هى مسألة تهدم الفكر المادى من أساسه،سواء الفرويدى أو الماركسى،لأنها إثبات قاطع وصريح بسبق الفكر على المادة.

ويميز القرآن بين هذين النوعين من الأحلام

ويقول ملك مصر

﴿يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى﴾ (٤٣ - يوسف).

﴿قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ (٤٤ - يوسف).

فهناك إذن أضغاث ورؤى.

ولكن فرويد لا يرى من الأحلام إلا تلك الأضغاث والهلوسات الشهوانية لأنه لا يرى إلا النفس الأمارة.

ولهذا يرى فرويد السعادة والراحة فى إشباع تلك الشهوات بينما يرى الدين أن السعادة والراحة فى مخالفتها وقمعها والقبض

على زمامها والتسلق عليها عودا إلى الوطن الأول.. إلى الله.. الذى جاءت النفوس كلها منه.. كما يرى الدين أن النفس الإنسانية منازل.. أدناها النفس الأمارة وأعلى منها النفس اللوامة والنفس الملهمة والنفس المطمئنة والنفس الراضية والنفس المرضية وأعلى الكل النفس الكاملة.

وتاريخ النفس هو صعودها لهذا المعراج من المنازل كدحا إلى الله فى أبديته وخلوده.

والحزن الحق فى الإسلام هو فراق النفس لوطنها القدسى وانغماسها فى ظلمة الدنيا.

أما الحزن عند فرويد فهو على العكس نتيجة حب الدنيا والحرمان منها.. وبينما نقول نحن إن الحب الأكبر هو حبنا لله.. وأن كل ألوان الحب الأخرى تأتى ضمنا لهذا الحب وفرعا عنه.. فنحب فى الله ونرغب فى الله.. نرى فرويد لا يبرح الدائرة الجنسية الشبقية فى نظرته للحب.. فهو دائما شبق ولو تسامى حبه إلى ألوان من الشعر والموسيقى فإنما كلها غزل بين ذكر وأنثى.

وهذا هو الفرق بين نظرة فرويد المادية المحدودة ونظرة الإسلام الرحبة الشاملة التى تضم بين دفتيها عالم الشهادة وعالم الغيب.

والحكيم هو من أدرك أن كل ما يصيبه داخل فى المشيئة الإلهية

معلوم لها فأراح نفسه من البكاء على ما فات والقلق على ما هو آت.

﴿ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير. لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور﴾ (٢٢ - ٢٣ - الحديد).

فهو لا يختال ولا يتكبر ولا يأسى على ما مضى وأدبر.. وتلك هى الصفات العالية للنفس المطمئنة.. وهى نفس غير موجودة بين دفتى كتب فرويد.

وقد تبين فشل الطب النفسى الحديث من التتبع الإحصائى للحالات التى تم علاجها نفسيا فقد اتضح أن معدل شفاء المرضى العصابيين ثابت سواء عولجوا على طريقة فرويد أو عولجوا على طريقة أدلر أو لم يتلقوا علاجا على الإطلاق فمن يشفى منهم مثل مريض الإنفلونزا يشفى بالعلاج وبدون العلاج.

كما اتضح أن معظم الأطباء النفسيين مرضى أكثر من مرضاهم وفى حاجة إلى تحليل.

وأخيرا رأينا الطب النفسى ينتكس ويرتد إلى العلاج المادى بالمسكنات والمهدئات والمنومات.. وهو هروب من المشكلة كلها بالنوم عنها.. واعتراف ضمنى بأنه لا حل ولا مخرج ولا وسيلة

إلى تبديل النفس وتغييرها.

والعجيب أن معظم المدارس النفسية مازالت تأخذ بهذا الرأى.. وهم بذلك يسدون على أنفسهم وعلى المرضى النفسيين أبواب النجاة.

ولكنا نقول بأن التغيير ممكن.. والله يعطينا المثال على أن التبديل ممكن.

وأين عمر بن الخطاب السكير الفاجر فى خصومته الغليظ فى جاهليته.. من عمر بن الخطاب الشريف العف الزاهد الشديد فى الحق بعد إسلامه.

هنا تغير كامل من ليل إلى نهار ومن ظلمة إلى نور. والأمثلة أكثر من أن تعد.

وكل من جاهد فى طريق الله رأى فى نفسه أمثال هذه التغيرات تحدث أمام عينيه كالمعجزات.. وعلم النفس الإسلامى يقدم الوسيلة ويقول إن النفس هى صنعة الله.

ردوا الصنعة إلى صانعها.. فهو وحده العليم بها والقادر على إصلاحها.

ماذا بعد الموت ؟

فى أمريكا عشرة آلاف جمعية روحية، وفى البرازيل ثلاثمائة مجلة روحية، وفى العالم آلاف الكتب والمراجع والنشرات والدوريات تصدر كل يوم تتناول موضوعات غامضة مثل.. الرؤى والأحلام والأطياف والهواتف والبيوت المسكونة وظواهر انتقال الأفكار والجلاء البصرى والإدراك خارج الحواس والتنبؤات الصادقة وقدرة العقل على تحريك المادة عن بعد والاتصال بالنفوس بعد موتها عن طريق الوسطاء.. وغيرها وغيرها..

وقضية الخلود بعد الموت قضية مثيرة.. وهى قضية كل عصر وكل زمان.. ولا يفتأ الإنسان يحاول أن يتسمع إلى ما وراء القبر ويحاول أن يفتح نافذة على الغيب أو يلتمس ثقبا يطل من خلاله على عالم الأشباح.. وكلمات الدين لا تشبعه فيحاول أن يعرف أكثر.

واليوم يفتحون الملف القديم لقضية التناسخ.. ولكن بمفهوم جديد وليس بالمفهوم الهندى القديم الذى يقول بعقاب النفوس الإنسانية الشريرة بردها فى أجسام حيوانات.

إنهم يرفضون هذا المفهوم.. ويقولون إن النفوس بعد الموت تعود إلى الميلاد فى أجساد جديدة لكن إنسانية ليعطيها الله فرصة

جديدة لتعانى وتتعلم وتحقق ذواتها وتثوب وتتطهر وتكتمل خلقيا فى رحلة تطور ومشوار ربما امتد آلاف السنين قبل أن ترفع إلى عوالم عليا حسب ما تستحق من منازلها.

ويقولون إن كل نفس من نفوسنا لها تاريخ.

ومن أدلتهم على هذه التجسدات السابقة.

أن تمر بمكان لأول مرة فيخيل إليك أنك تعرفه وأنك رأيته من قبل وأن تسمع صوتا لأول مرة فيخيل إليك أنك سمعته من قبل وأن تحب شخصا بدون سبب أو تكره آخر بدون مبرر (وكأنما كان لكما لقاء وتعارف فى حياة سابقة) وأن ترى فى الأحلام مدنا وأماكن لم تزرها ولم تطأها قدماك وأن يحدث أحيانا أثناء التنويم المغنطيسى أن تسمع الوسيط يتكلم لغة أجنبية دون أن يكون قد تعلم منها حرفا ويتحدث بها بطلاقة عجيبة فإذا رده المنوم إلى تذكر ما قبل مولده حكى عن حياته فى ذلك البلد الأجنبى وكيف ولد من أب وأم يابانية فى طوكيو فى شارع كذا فى البيت رقم كذا تحت اسم كذا.. ويحدث بالتحقيق والاستقصاء أن تتضح أن تلك البيانات صحيحة.

ثم ما يلاحظ من سلوك الأطفال وما نرى من أن سلوكهم هو أبعد ما يكون عن البراءة والطهارة التى تروى عنهم.. ففيهم الخبث والمكر والكذب والملق والأنانية وهناك الطفل الذى يعض

على حلمة ثدى أمه فى قسوة وهناك الآخر الحنون الذى يربت عليها فى لطف.. وذلك منذ اليوم الأول وقبل أن يتلقى أحدهما أى مؤثر من البيئة.. فمن أين جاء الأول بكل هذه الشخصية العدوانية ومن أين جاء الثانى بكل ذلك الحنان وهما بعد فى الساعة الأولى من حياتهما.

وكم رأينا من عباقرة ولدوا من آباء خاملين،وكم رأينا من أبطال شجعان ولدوا من آباء جبناء رعاديد.. وأين نوح من ابنه الكافر وأين إبراهيم النبى من أبيه عابد الاصنام.

إن البيئة لا تصنع شيئا من حقيقة الطفل ولا الوراثة تعطيه سوى مجرد إطار لشخصيته أما سره وخيره وشره وحقيقته فيأتى بها من الغيب من تراكم أفعاله فى حيوات سابقة.

وإنما تكون وراثة الإنسان الحقيقية من نفسه ويأتى طبعه من تراكم اختياراته السابقة فى حيواته المتكررة التى تحولت إلى عادات من كثرة تواترها.

ويتصور أصحاب هذه الفكرة أن كل النفوس متساوية وأنها جميعا تبدأ ساذجة جاهلة وكل الفارق أن بعضها يطول مشواره ولكنها جميعا واصلة وجميعها صائرة إلى الجنة ولهذا ينكرون القيامة الكبرى والحشر الجمعى كما ينكرون فكرة الجحيم اكتفاء بأن الله يعاقب النفوس بردها إلى التجسد الدنيوى مرة بعد مرة لتعانى

ثمرة خطاياها حتى تتطهر وتتوب وتصبح مستحقة للجنة الأبدية والميراث السماوى.

ولا يوجد كلام أشد خطأ من هذا الكلام.. فالواقع برمته ينفى تماما أى قول بالمساواة بين النفوس والكون كله مبنى على أساس التفاضل والتمايز بين المخلوقات،حتى فى مملكة النبات تتفاضل الرتب،حتى فى الصنف الواحد،فنجد فى البرتقال أنواع السكرى والبلدى والصيفى،وفى العنب نجد البناتى والفيومى وجاناكليس،وفى القطن نجد طويل التيلة وقصير التيلة وجيزة ٧، وفى العناكب نجد مائة ألف صنف لا يشبه الواحد منها الآخر وفى الزهور خمسمائة ألف نوع لا تشبه زهرة الأخرى وفى الأسماك والأحياء البحرية تصانيف أكثر.

وفى النفوس البشرية أعجوبة الأعجايب فى عالم الخلق لا يتساوى اثنان ولا تتشابه بصمتان،فالكلام عن المساواة فى المراتب والمنازل والمصائر هو محض هذيان.

وبشهادة خالق النفوس أن أكثرها هالك.

﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾.

والأمر المشاهد بالفعل أن أكثر النفوس تظل على إصرارها فلا تتعظ ولا تعتبر وتظلّ تعاود شرورها مرة بعد مرة برغم وعدها لربها بالإقلاع والتوبة كل مرة.

وفى إبليس نجد نموذجا عجيبا من الإصرار على المخالفة فهذا

مخلوق أمهله ربه ليعيش دون موت من مبدأ آدم إلى قيام الساعة وهى مدة بالتقدير الزمنى أكثر من عشرة ملايين سنة (عمر البشرية منذ آدم) وهو ما يزال قائما على الغواية والإفساد لم يتطور ولم يتكامل ولم يتطهر ولم يرجع عن إفساده قيد أنملة.

بل ماذا فعل هتلر وستالين ونيرون وكاليجولا.

إن هتلر وحده كان مسئولا عن قتل عشرين مليونا من الأنفس، ومثله ستالين فى الحرب العالمية الثانية وما بعدها.

أيرون أن من العدالة أن ترد هـذه النفوس إلى تجسـدات دنيوية ثانية لتقتل أربعين مليونا أخرى؟.

ومن يكون أولى بالرحمة فى نظر العناية الإلهية.. أن يرد الله هذه النفوس رأفة بها لتأخذ فرصة أخرى فى القتل والذبح أم أن تكون تلك الملايين من ضحاياها هى الأولى بالرحمة فلا يردها وإنما يؤجلها ليوم الفصل لأنها استوفت من الشر غايته؟

إن القول بأن النفوس تستوى فى خيرها وشرها وأنها مستحقة جميعها للجنة وللميراث السماوى بعد طول المشوار هو قول ساذج فإن ما بين النفوس من التفاوت أكبر مما بين فلك وفلك.

ولهذا يقول ربنا عن التفاضل بين النفوس وعن تمايز درجاتها يوم القيامة:

﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾.

أى أن ما نعرف من التمايز الطبقى فى الدنيا لا يساوى شيئا إلى جوار التفاوت فى الدرجات فى الآخرة.

وهو تفاوت عادل بحكم تفاوت الحقائق وتفاوت المراتب.

فهناك الملك وهناك الشيطان وهناك الإنسان الذى جاوز فى خيره رتبة الملك كما جاوز فى شره رتبة الشيطان.. والثواب والعقاب بهذه الصورة التى يحكونها بالرجعة إلى الأجساد مرة بعد مرة.. لا يشكل ثوابا ولا عقابا،لأن الإنسان يأتى كل مرة ناسيا تماما لحياته السالفة فحلقة السبب والنتيجة مبتورة.. وإنما هى مجرد تعداد للفرص وللإمكانيات لا أكثر إن صحت مزاعم العودة للتجسد وذلك حتى يحق القول فى النهاية فى ذلك المشهد الجمعى وذلك الحشر الهائل لجميع الخلائق وهو المشهد الذى تهتك فيه الأستار وتنكشف الخبايا وتفتضح الخفايا..

وذلك هو النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون.

وذلك هو يوم الحاقة والصاخة والغاشية والقارعة والراجفة والزلزلة والساعة ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم التغابن (يوم يشعر كل إنسان أنه ظلم نفسه).

وهو اليوم الذى يقتضيه الجلال الإلهى.. وتقتضيه العظمة والقدرة والهيمنة والعدل النهائى الفاصل والكامل..

وشهادة الأرواح المراسلة التى حكى عنها الزميل الدكتور رؤوف عبيد فى كتابه «العودة إلى التجسد».. أمثال سلفر بيرش وهوايت راى وهوايت ايجل وغيرها لا يصح أن تقوم لها حجة أمام الروح الأمين جبريل.. وأمثال تلك الأرواح هى بشهادة الدكتور عبيد أكثرها هازل وكاذب ويروى أوهاما وأضاليل.. وهى نفوس مثل كل النفوس يجوز عليها الخطأ.

وعلم الأرواح هو علم يؤخذ منه ويرد وهو لا يخلو من التخليط ولا يصح أن ينظر إليه بأنه صدق كله.. وهو فى أحسن الأحوال مجرد مناسبة للتأمل والتفكير.

وأكبر خلط يقع فى هذا العلم هو الخلط بين كلمة نفس وكلمة روح..

وكل ما يذكر فى هذا العلم هو عن النفس وليس عن الروح وإذا صح مبدأ الرد إلى الأحياء فإنما النفس هى التى ترد وهى التى تعانى لتتطهر وتتكامل.. أما الروح فهى مبدأ إلهى قدسى لا يجوز الكلام عنها بأنها تعانى أو تتطهر أو تتكامل، فلا نقص بها لكى تتكامل ولا رجس فيها لكى تتطهر.

والروح هى المبدأ الإلهى الذى به تحيا النفس ويحيا الجسد فهى سر الحياة فى النفس وسر الحياة فى الجسد وهى واحدة لاتختلف فى أى انسان عن آخر بحيث لا يجوز أن نقول روح فلان.. وروح علان.. وإنما الصواب أن نقول نفس فلان ونفس

علان فهى التى تختلف من واحد لآخر..

وإذا صحت ظواهر حضور الأرواح.. فليست الأرواح هى التى تحضر بل النفوس، ومن هذه النفوس من يكون من الجن أو من البشر المنتقل، أما الأرواح فهى متعلق الحياة فى كل حى وهى مبدأ إلهى لا نعلم عنه شيئا.. وهى لا تحضر ولا تغيب.. وهى ليست فلانا أو غير فلان.

وكبير الملائكة جبريل هو الوحيد الذى أطلق عليه اسم الروح، وهو الوحيد الذى يمكن النظر إليه على أنه روح محضة، ولهذا لا يقول إلا الحق ولا ينطق إلا بالصدق.. أما باقى النفوس فيجوز عليها الخطأ ولا تجوز تسميتها إلا بالنفوس.. ولهذا ينسب الله الروح إلى نفسه فيقول: ﴿فإذا نفخت فيه من روحى﴾ وينسب النفس إلى صاحبها فيقول.. ﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله﴾. لأن الروح لله أما النفس فلصاحبها.

ولأن النفوس تتفاوت ولأن مراتبها تتفاوت، فيلزم أن تتفاوت مصائرها وتلزم قيامة شاملة (غير العودة الفردية للتجسد) يجسد فيها الله النفوس ويحشرها ليوم الجمع الذى يجمع فيه الناس لحساب ختامى يطلع فيه كل نفس على كتاب أعمالها ويشهدها على سجل أفعالها فى كافة تجسداتها السالفة.. هذا إن صح قولهم:

﴿ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا﴾ (٤٩ - الكهف).

ويحق القول فيه بالجنة خلودا أو بالنار أبدا بعد هذا التمحيص الأزلى للنفوس بهذا العديد اللانهائى من الفرص.

والذين يستبشعون حكم الله بالنار الأزلية ويرون فى هذا الحكم ما يناقض الرحمة الإلهية لا يعلمون أن الله سوف يختار للنار نفوسا نارية هى فى ذواتها شعلات من الحقد والغل.. والنار ستكون هى البيئة الطبيعية لتلك النفوس والمكان المناسب لحقيقتها.. فأين يمكن أن توضع مثل تلك الشعلات النارية إلا فى نار.

ثم ألا يتحدث القرآن عن نزلاء تلك النار فيقول: إنهم يتحادثون ويتخاصمون ويتلاعنون ويأكلون ويشربون.. ويقول لنا: إن فى تلك النار شجرة.. تخرج فى أصل الجحيم.. وأن فيها ماء.

فهى إذن نار مختلفة عن نارنا وعلاقة الأجسام بها علاقة مختلفة.. وهى غيب.. وحقيقتها غيب.. ولا نستطيع أن نؤسس عليها حكما.

ويقول المعترضون.. إذا كانت النفس الواحدة تعود إلى الحياة أكثر من مرة لتعيش أكثر من شخصية وأكثر من دور.. فأى من تلك الشخصيات سوف يبعث ويحاسب، وأى منها سوف يعتبر هو النفس.

ويجيب أصحابنا بأن النفس هى الذات العميقة وراء كل تلك

الشخصيات وهى خارج الزمان والمكان.. وما حياتنا فى عالم الزمان والمكان إلا شخصيات وأدوار.. وما تلك الشخصيات إلا كلقطات كاميرا من زوايا متعددة تؤلف فى مجموعها ملامح تلك الذات الواحدة العميقة.. وما تلك الأدوار وتلك الشخصيات إلا سجل أعمال ودفتر يوميات واعترافات بخط اليد لتلك الذات الواحدة العميقة.. وهى التى سوف تبعث.. وهى التى سوف تحاسب.

وسيؤسس الحساب فى النهاية على «الدوسيه» الكامل وليس على صفحة واحدة أو دور واحد أو شخصية واحدة من السجل.

ويقول المعترضون.. لقد بدأ الخلق بواحد هو آدم.. فمن أين جاءت الكثرة إذا صحت مزاعم القائلين بالتناسخ. والحوار بين الجانبين يطول والموضوع المحورى الذى يظل يدور حوله الجدل هو مفهوم العدل الإلهى.

ولكن ماذا يقول القرآن

إن بالقرآن آيات صريحة تقول بتعدد الحيوات

يقول المجرمون بين يدى الله فى الآخرة:

﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾ (١١ - غافر).

وهو كلام صريح يقول بالإماتة مرتين والإحياء مرتين.. وهى

الآية التى تفتح الباب بالفعل لفكرة العودة للتجسد ولفكرة تعديد الفرص أمام النفس.. ولقد فهمها المفسرون الأقدمون فهما مختلفا فقالوا: إن الميتتين هما الموت والنوم.. ولو صدق هذا التفسير لوجب أن تكون الميتتان هما حال الجميع.. ولكن الله قال بصدد الصالحين كلاما آخر.. فذكر فى كتابه أنهم:

﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم﴾ (٥٦ - الدخان)

فتلك إذن موتة واحدة للصالحين برغم أنهم كانوا مثل الباقين ينامون.. فلا يمكن أن يكون ذلك الفهم صحيحا.

والله فى القرآن يبدأ الخلق ثم يعيده.

﴿إنه هو يبدئ ويعيد﴾ (١٣ - البروج).

﴿كما بدأكم تعودون﴾ (٢٩ - الأعراف).

ويتكرر هذا المعنى كثيرا بصياغات متعددة وبطريقة لافتة للنظر.

ويقول الله لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام.

﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا * إذًا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا﴾ (٧٤ - ٧٥ الإسراء).

وهو تحذير للأمة المسلمة كلها من خلال الرسول عليه الصلاة والسلام بأن الركون إلى الكفار عقابه هو أن يذوق الفاعل ضعف الحياة وضعف الممات.

فما هو ذلك الضعف.

إنه نفس ما قاله المجرمون فى الآية الأولى:

﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾.

فتضعيف الحياة ليسَ إطالتها وإنما تعديدها.

ثم إن الكافرين يسألون الله فى الآخرة أن يردهم ليعملوا صالحا فيقول ربنا جل وعلا:

﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ (٢٨ - الأنعام).

وهؤلاء هم المجرمون بالحق والحقيقة وهم أهل النار الذين هم أهلها فعلا.. وإذا كان الله قد قال بشأنهم إنه لو ردهم لعادوا إلى غيهم فلعله سوف يقيم الحجة عليهم بأن يردهم بالفعل إلى تجسدات متعددة فيعاودون إجرامهم ويحق عليهم القول.. لأن سنة الله دائما أن يبطل حجة الكافر.. بدليل الآية السابقة الواردة بصدد المجرمين الذين يقفون فى ذلة بين يدى الله قائلين.

﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾ (١١ - غافر).

ثم يقول الله عن خلقه:

﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا﴾ (٢٨ الإنسان).

وفى سورة محمد الآية ٣٨ يخاطب المؤمنين:

﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾.

ومعنى ذلك أن الإبدال الأول غير الإبدال الثانى ففى الإبدال الأول مثلية.. فماذا يكون هذا الإبدال للشخوص بأمثالها.

وفى آيات الواقعة.. الآية (٦٠ - ٦١ - ٦٢).

﴿نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين. على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فى ما لا تعلمون. ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾.

هل هذا الإبدال للشخوص بأمثالها.. هو العودة للتجسد الذى يقول به البعض:

﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب﴾ (أى بميلاد جديد) (٥٦ - النساء).

وفى سورة الصافات يروى القرآن عن أهل الجنة يتحدثون:

﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قال قائلٌ منهم إنى كان لى قرين * يقول أَإِنَّكَ لمن المصدقين * أَإِذَا مِتنا وكنا ترابا

وعظامًا أإنّا لمدينون * قال هل أنتم مطلعون * فاطلع فرآهُ فى سواء الجحيم» (الصافات ٥٠ - ٥٥).

هكذا يرى قرينه الذى كان يغـويه فى سـواء الجحيم ثم يدور بينه وبين هذا الشيطان الحـديث ﴿قال تـالله إن كدت لـتردين * ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين * أفَمَا نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين﴾ (الصافات ٥٦ - ٥٩).

والمعنى واضح.. بل نحن ميتون أكثر من مـوتتنا الأولى ثم نحن مبعوثون إلى حساب وعذاب لمن يستحق العذاب.

والكلام يشير إلى تعدد مرات الموت للنفس الواحدة.

والموضوع كبير ولا يمكن الجزم فيه بشىء.. وهو مجال تأمل وتفكر والتعصب لأى موقف.. مع أو ضد.. هو اتجاه خاطئ فليس عند أى طرف من المتحاورين علم قاطع بشىء والمخاطبات التى تأتى من عالم الغيب قد تكون ضلالات تبثها نفوس شيطانية تعبث بعقول الوسطاء.

وما جاء بالقرآن عن عالم ما بعد الموت هو من متشابه القرآن الذى يحمل أكثر من وجه من وجوه الفهم والتفسير وليس من المحكم الذى لا خلاف عليه، وهناك من آيات القرآن ما يقول بتعدد مرات الإحياء والإماتة ومنها ما يقول بالموتة الواحدة وينفى أى قول بفرصة ثانية.

وهكذا يسدل الله ستر الغيب على الموضوع كله ويحتفظ بطلاقة المشيئة فى من يعيد ومتى يعيد وهل يعيد أو لا يعيد.. ويريد لنا أن نعيش على تخوف ونحيا على حذر وذلك باب من أبواب رحمته.

ويظل الموضوع.. متاهة.. لا ينتهى فيها البحث.. كما يظل بابا للفتنة..

ويستغل أهل الملل الباطنية من شيعة ودروز وبهائية وماسونية هذا الباب المفتوح لاستدراج ضعاف الإيمان إلى إنكار القيامة والآخرة اكتفاء بما تعانيه النفس المذنبة من عودتها للتجسد فى الدنيا مرة بعد مرة.. فلا شىء عندهم غير الدنيا والثواب فيها والعقاب فيها.. وهو قول فاسد.. فما يجرى على النفس بعد الموت فى البرزخ أو فى الدنيا (وهو علامات استفهام) هو شىء غير القيامة الكبرى وغير يوم الجمع الذى تحشر فيه النفوس إلى ربها لتقف بين يديه.. وهو لب الإيمان الذى لا يصح دين إلا به لأنه «الدينونية» ذاتها.. ولأنه القول الفصل فى منازل النفوس ودرجاتها والحكم العدل فى مراتبها.

وإذا كان هناك مبرر لقبول هذه الشطحة التى يقول أصحابها بإمكان العودة للتجسد فذلك لأنى أرى الله يقطع بها الذرائع وينهى الحجج لمن يتعلل بأنه لم تكن لديه الفرصة فى كذا أو

الإمكـانيـة أو لكـذا.. فيعـطيـه الله هـذه الفـرصـة.. أو تلك الإمكانية.. ثم تكون الوقفة الخاتمة التى ليس فيها كلام.

﴿يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾ (١٠٥ - هود).

﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا﴾ (٣٨ - النبأ)

﴿وخشعت الأصـوات للرحمن فـلا تسمـع إلا همسـا﴾ (١٠٨ - طه).

﴿وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما﴾. (١١١ - طه)

﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ (١٦ - غافر).

بطلت الحجج.. وأنتهت الذرائع.. وانقطعت الأسباب.. وجفت الأقلام وطويت الصحف.

تلك هى القيامة التى لا يقوم دين إلا بها ولا يقوم فكر دينى بدونها ومن يبطلها يبطل الدين كله..

* * *

السؤال

يا صاحبى ما آخر الترحال
وأين ما مضى من سالف الليال
أين الصبا وأين رنة الضحك
ذابـــــــــــــت.....؟!
كـــأنها رســـم عـــلى المـــاء
أو نقـــش على الـــرمـــــال
كأنها لم تكـــــــــــــــــن
كأنها خيـــــــــــــــــال
أيقتـــل النـــاس بعضهم بعضـــا
على خيـــــــــــــــــال
على متـــــــــاع كلـــه زوال
عـــلى مسلسل الأيـــام والليـــال
فى شاشة الوهم ومرآة المحال
إلهى يا خالق الوجد.. من نكون
من نحن.. من همو.. ومن أنا
ومـــا الـــذى يجـــرى أمـــامنـــا
ومـــا الزمـــان والوجـــود والفنا
ومـــاالخلق والأكـــوان والـــدنـــا
ومن هنـــاك.. من هنـــــــــا

أصابنى البهت والجنون
ما عدت أدرى
وما عاد يُعبِّر المقال

الفهـرس

صفحة

هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائما على تقديم الأعمال الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم.. فأثرى ساحة الفكر والعلم.. وطَرَقَ أبوابًا جديدة لم تفتح من قبل.. فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية وأدب الرحلات.. إلى جانب تلك المؤلفات التى تحفل بالنظرات المعاصرة للفكر الدينى والمقارنة بالنظرات العلمية الحديثة.. والتى لاتزال تثير مزيدًا من الجدل المفيد.

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء المتميز المتنوع.

